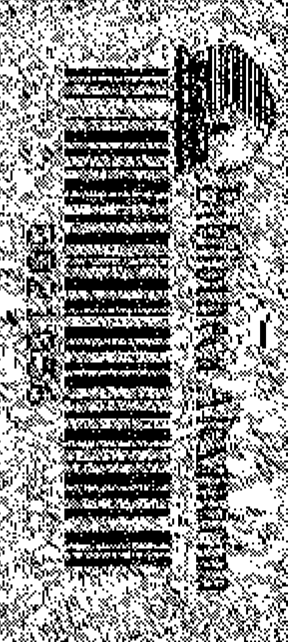


شتاء في يوليو

تصميم الغلاف : بولس جداى

شركة دار الياس العصرية
١ شارع كنيسة الروم الكاثوليك – الظاهر – القاهرة

رقم الايداع بدار الكتب : ١٩٩١/٧٨٢٩
الترقيم الدولى: ISBN: 977 5028 05 1

دوريس ليسنج

شتاء في يوليو

ترجمة عنان على الشهاوى

شركة دار الياس العصرية
القاهرة

المحتويات

الكـــــوخ الثانـــــى

قبل ذلك الموسم ، وقبل مرض زوجته ، كان يعتقد أن الأمور لا يمكن أن تزداد سوءًا: حتى ذلك الحين كان الفقر يعنى ألاّ ينحدر إلاّ قيد أنملة عما تربى على الاعتقاد أنه الحياة العادية.

كان الاختيار الأول الذى واجهه بمفرده أن يصبح صاحب مزرعة (وصل إلى ذلك متأخرا فى العمر ، فى أربعيناته). من قبل كان يدعمه دائما ، بشكل غير ملحوظ ربما ، لكن بقوة مع ذلك ، ما كانت أسرته تتوقع منه. كان رجلا عسكريا نظاميا ، ولم يكن شخصا غير ناجح كعسكرى ، لكن نجاحه كان على حساب كبت مستمر ضد رغباته ، ولم يكن يعرف ماذا كانت رغباته تلك. شىء ما يستعصى بعناد على التكيُّف جعله ينأى بنفسه عن زملائه الضباط. كان اختلافاً داخليا: لم يفكر فى نفسه كعسكرى. حتى فى مظهره: القوى ، المحافظ ، المنضبط ، كانت هناك مسحة رقة أو توتر ، تتبدى فى ابتسامته التى كانت سريعة جدا مثل ابتسامة شخص أصم يخشى أن يُظهر عدم الفهم ، وفى النظرة القلقة لعينيه. بعد أن ترك الجيش سرعان ما أصبح مهملا إلى حد اللامبالاة تقريبا فى ملبسه وعربته. الآن فى ملابس المزرعة ، لا أثر يدل على رجل عسكرى، بقبعة من اللباد متسخة وواسعة على مؤخرة رأسه ، وبنطلون شورت كاكى برجلَيْن أطْول قليلا من اللازم ، وأوسع من

اللازم ، وكُمّين يتدليان على ذراعين أسمرين نحيلين ، وبشاربه الخفيف الذى يخفى فما مطبقا متوترا: هكذا بدا ميجور كاروثرز: مزارع چنتلمان يذهب إلى الفلاحة.

كان للمنزل ذلك المظهر الأنيق البالى لمن يناضلون من أجل الحفاظ على المظاهر. كان كوخا من أربع غُرَف ، حال سقفه الأحمر إلى لون بنّى مقلّم غير منتظم. كان منزلا من النوع الذى يبنيه مزارع مبتدىء كمأوًى مؤقت إلى أن يستطيع أن يحصل على مسكن أفضل. فى الداخل أثاث جيّد لكنه بالٍ ، موضوع فوق مواضع ممزقة من السجاجيد ، وكان البيانو مهملا غير مشدود الأوتار ، وأصابعه معطلة ، وكانت أدوات الشاى الفضية - المنقولة من المنزل الكبير الخانق فى انجلترا حيث يعيش أخوه (المحامى) الآن - تستخدم كزخارف ، وبداخلها قطع من الورق ، أوراق حسابات ، حلقات من المطاط ، سدادات فلّين قديمة.

كانت الحجرة التى رقدت فيها زوجته ، فى ظلمة مائلة إلى الخضرة يشقها ضوء الشمس ، مكاناً بائساً قذرا. قال الطبيب أنه قلبها ، وكان ميچور كاروثرز يعلم أن هذا صحيح ، كانت قد اعتلت من الحسرة على الظروف التى كانوا يعيشون فيها. لم تكن ترغب فى أن تتحسن. كانت هناك ستائر قاتمة تمنع دخول الضوء المزعج من الخارج ، وكانت تدير وجهها إلى الحائط ، ترقد هناك ، ساعة بعد ساعة ، خامدة وغير شاكية ، فى جوٍّ من الاستسلام الصبور للهزيمة لا يمكن اختراقه. حتى الطفلان قلّما كان بوسعهما أن يحركا مشاعرها. كانت وكأنها قالت لنفسها: «إن لم أستطع تحقيق ما أردته لهما ، سأنفض يدىّ من الحياة».

كان ميچور كاروثرز يفكر فيها أحيانا وهى فى تلك الحال ، وقد امتلأ بحيرة قلقة وبشعور بالذنب. نشأت تلك الفتاة الإنجليزية الجميلة اللطيفة التقليدية لتكون زوجة مثالية للعسكرى المحترف الذى تصورت أن يكونه ، لكن الحظ ألقى بها إلى هذه المزرعة الأفريقية المنعزلة ، إلى حياة أسلمت لها

نفسها ، وكأنها لا تعنيها فى شىء. فى السنوات القليلة الأولى ، كانت تواجه المصاعب باستهانة وشجاعة: كان موقفها مرحاً تجاه الحياة ، عابثا تقريبا ، كامرأة تتدلل بخفة مع رجل لا يعنى شيئا لها. عندما صار المنزل باليا وكذلك الأثاث ، ولم يعد بمقدورها شراء ملابس جديدة ؛ كانت تنظر إلى المرآة ، وترى شعرها الجاف المنكوش ووجهها المخشوشن ، فتطلق ضحكة عالية سريعة وتقول: « ياإلهى ، أى حال صار إليها المرء ! ». كانت تواجه هذا الفقر ، كما كان يمكنها أن تواجه فى انجلترا ، فقر ضيق ذات اليد ، لكن من نوع مقبول اجتماعيا. ما لم يكن بوسعها أن تواجهه هو نوع آخر من الخوف ، وكان ميجور كاروثرز يفهم ذلك تماما ، لأنه كان فى ذلك الحين خوفه هو أيضا.

كان الطفلان مخلوقين رقيقين شاحبين ، لهما مظهر شفاف فى صفائهما العصبى الرقيق ، ويتميزان بالسلوك الدفاعى والحذر للصغار الذين تربوا على أن يتوقعوا سبيلا أفضل فى الحياة من تلك التى يتمتعون بها. أنهك حرصهما المشوب بالقلق أعصاب ميجور كاروثرز الزائدة الحساسية بطبيعتها. لم يكن للطفلين الحق فى أن يشعرا بالشفقة الموجعة التى كانت ترتسم على وجهيهما كلما نظرا إليه. كانا شديدى الأدب ، بالغىْ الحرص ، كثيرىْ الوساوس. عندما كانا يذهبان إلى حجرة أمهما ، كانت تغتم بأسًى عليهما ، فيستسلمان بصبر لانفعالاتها. فى كل تلك الأسابيع من الإجازة المدرسية بعد أن أصابها المرض ، كانا يطوفان بأنحاء المزرعة مثل شبحين متوترين وقلقيْن ، وكان كلما رآهما وخزه إحساسه بالذنب كجرح. أسعده أنهما كانا سيعودان إلى المدرسة قريبا ، لأنه حينئذ – هكذا فكر – سيكون من الأسهل أن يدبر أموره. كان إجهادا لا يحتمل: إدارة المزرعة ، والعودة إلى المنزل المهمل ، ومشاكل الطعام ، والملبس ، وزوجة مريضة ، لم تكن لتتحسن إلى أن يكون بمقدوره أن يعطيها الأمل.

لكن عندما عادا ، وجد ، رغم كل شىء ، أن الأمور لم تكن أيسر

كثيرا. كان ينام قليلا ، لأن زوجته كانت تحتاج إلى الرعاية ليلا ، وصار خائفا على صحته ، قلقا على ما يأكل ويلبس. تعلّم أن يعامل نفسه وكأن صحته هو ليست مجرد حالة ينعم بها ، بل كأنها شيء منفصل عنه ، كأنها سلعة تساوى الكفاءة على العمل ، يمكن تقييمها بحساب المال فى نهاية موسم. كانت صحته تقف حائلا بينهم وبين الإفلاس الكامل ، وسرعان ما أصبحت هناك زجاجات دواء بجوار سريره ، تماما كما كانت بجوار سرير زوجته.

ذات يوم ، بينما كان يعاير لنفسه بدقة دواء مقويا فى حجرة النوم ، نظر ورأى عينى زوجته الصغيرتين المحمرتين تحملقان فيه بشك لكن بسخرية من فوق أغطية السرير. سألت: « ماذا تفعل ؟ »

« أحتاج لدواء مُقوٍّ » أوضح بارتباك ، خوفاً من إزعاجها بالشروح.

ضحكت للمرة الأولى منذ أسابيع ، ثم بدأت الدموع الفاترة تنحدر تحت جفنيها ، واستدارت إلى الحائط ثانية.

أدرك أن تصوُّرا محددا عنه قد تحطّم لديها أخيرا. أصبحت الآن مع جنتلمان أخذ فى الشيخوخة وسريع الاهتياج إلى حد ما ، يعاير الدواء بعناية بعد الوجبات. لكنه لم يلُمْها ، لم يلُمْها قط ، حتى رغم أنه كان يعلم أن مرضها كان فشلا فى الإرادة. ربت على خدها بفتور ، وقال: « لن يفيدنى بأن تسوء صحتى ، أليس كذلك ؟ ». ثم أحكم الستائر على الشبابيك ليمنع شريط ضوء يتراقص ويهدد بأن يسقط على وجهها ، ووضع كوباً قريبا من يدها ، وخرج ليجهز صينية حساء من أجلها.

فى تلك اللحظة اتخذ – فى حركة سريعة ومؤلمة ، كأنه ينط سدا – القرار الذى كان يعرف منذ أسابيع أنه ينبغى أن يتخذه عاجلاً أو آجلاً. شد كتفيه – صدًى من ماضيه العسكرى – وقبل تحدِّى توتر عبء إضافى: يجب أن يأتى بمساعد ، سواء أحب هذا أم لا.

كان يرتعد كثيرا من أى ظهور للعيان ، حتى أنه لم يفكر أبدا فى نشر

إعلان. أرسل مذكرة مع حامل من السكان الأصليين إلى جاره – على مسافة عدة أميال – طالبا أن ينشر في الخارج أنه يريد مساعدا. كان يدرك أنه لن يضطر إلى الانتظار طويلا. كان ذلك في ١٩٣١ وسط كساد اقتصادى، وكانت هناك بطالة، وهذا شيء نادر في هذا البلد الجديد القليل السكان.

كتب الآتى إلى ولديه في المدرسة الداخلية:

أتوقع أن يدهشكما سماع أنني سآتي برجل آخر إلى المزرعة. العمل يتوسع الآن إلى حد ما، ولأني أخطط لزراعة مساحات أكبر من الذرة هذا العام، فكّرتُ أن هذا يحتاج إلى رجلَيْن منا. أمكما أفضل هذا الأسبوع بوجه عام، لذلك أعتقد أن الأمور مبشرة، وهي تترقب إجازتكما القادمة، وتطلب مني أن أقول أنها ستكتب عما قريب. بيني وبينكم، لا أعتقد أنها ستكتب في التوّ. أعتقد أن الطقس سيصبح باردا قريبا، لذلك إن احتجتما إلى أية ملابس، أنبئاني، وسأرى ما يمكنني عمله ...

بعد أسبوع، كان جالسا يدخن في الفراندة الصغيرة قُرْب المساء، عندما رأى رجُلا قادماً على دراجة خلال الأشجار. لاحظه عن قُرْب، كان يحاول في تلك اللحظة أن يقيِّم شخصيته بواسطة الاختبارات التي ظلّ يستخدمها طوال حياته: المسافة بين العينين، شكل الجمجمة، طريقة اتصال الساقيْن ببقية الجسم. رغم أنه انخدع دستة من المرات، إلاّ أن اعتقاده في هذه الوسائل لم يهتز. كان فريسة سهلة لأى محتال، أقرض أموالا لم يرها ثانية قط، خدعه مغامرون محترفون كانوا يتزيُّون بزيّ الجنتلمان (فيما بدا له، إذ كان يقيس الآخرين بدماثته هو، وبالدفء السريع الذى كان يحسه تجاه الناس). اعتاد أن يقول: كونك جنتلمان هي مسألة غريزية: لا يمكن للمرء أن يخطىء جنتلمان.

بمجرد أن ترجّل الزائر، وسحب دراجته إلى الفراندة، رأى ميجور كاروثرز أنه شاب، ربما في الثلاثين، متين البنية، بقوة هائلة في ذراعيه الغليظين وكتفيه، كان جلده محروقا بلون بني متورد ينُم عن الصحة. وكان

شعره القصير الناعم كفراء حيوان ، لايعكس ضوءاً. وكان يحيط بملامحه الحادة القوية وجه مستدير ، وكانت عيناه رماديتين باهتتين ، تقريبا بلا لون.

اسقط ميجور كاروثرز غريزيا معاييره عن القيمة عندما نظر إليه ، لأن هذا الرجل كان جنوب أفريقى من أصل هولندى ، ولذلك جاء خارج التصنيف. هذا لا يعني أنه كرهه بسبب ذلك ، رغم أن أباه مات قتيلا فى حرب البوير ، لكنه لم تربطه صلة من قبل مع اناس من جنوب أفريقيا من أصل هولندى ، وكانت معلوماته عنهم مجرد أقاويل سمعها من إنجليز ذوى أراء متحيزة قديمة. لكنه أحب منظر الرجل: أحب الوجه الصريح الأمين.

أما ڤان هيردن ، فقد تعرّف فورا على خصمه التقليدى ، وكان كرهه الموروث قويا. لوهلة بدا عنيدا وحذرا. لكنهما كانا يحتاجان إلى بعضهما احتياجاً بالغاً يسوء معه أن يُزكيا عداوتهما القديمة ، وجلس ڤان هيردن عندما طُلب منه – رغم الارتباك – كابحاً نفوره ، وبدأ يرسم أشكالا فى التراب بعود من القش كان يضعه بين شفتيه.

لم يكن ميجور كاروثرز فى حاجة إلى أن يتساءل عن ظروف الرجل: كان قبوله السريع بما كان شروطا هزيلة يدل على بحث طويل عن العمل.

قال فى شك: « أعرف أن الأجر منخفض ، وأن مكان الإقامة سيء حتى لرجل أعزب ، كان لى نصيب من الحظ السيء ، ولا أستطيع تَحَمُّل المزيد. ستفهم تماما إذا ما أنت رفضت ».

سأل ڤان هيردن: « ما حالة مكان الإقامة ؟ ». كان هذا صوته ، الصوت الأجش لجنوب أفريقى غير متعلم: لأنه لم يكن متأكدا أين يجب أن تقع النبرة فى كل جملة ، كان فى كلامه صوت أعرج متموج ، رغم أن هيئته وسلوكه كانا صريحين بما فيه الكفاية.

أشار ميجور كاروثرز أمامهما حيث كان الدغل ينحدر بتدرج أمام المنزل إلى الحقول: « يوجد كوخ عند سفح التل ، ظللت استخدمه كمخزن وبناؤه متين تماما ، وتستطيع أن تعد مكانا كمطبخ ».

نهض ڤان هيردن: « أيمكنني رؤيته؟ ».

بدأ السير. لم يكن المكان بعيداً. قام الكوخ المسقوف بالقش في دغل كثيف. كانت الحشائش تتسلق الجدران وترتفع لتلقى السقف القش المائل. وكانت أغصان الأشجار تتعانق فوق السقف. كان كوخاً مستديرا ، مبنيا من قوائم خشبية وطين وكانت له أرضية من الروث المبلّط. في الداخل كانت هناك رائحة عطنة عفنة بسبب النمل والخنافس المنتشرة في أجولة الحبوب ، وكان الشباك الوحيد مسدودا تماماً بألواح خشبية ، وكان الظلام مطبقاً. وفي بصيص ضوء مشوش عبر الباب ، بدت طبقة سميكة لبيت عنكبوت متلبد ، أشبه بستارة تشق جوف الكوخ ، مملوءة بذباب وحشرات صغيرة تماما مثل مخبأ طائر "الجزار". جثم عنكبوت ، ضخماً ومتألقاً ، في اهتزازات رقيقة ، محملقا فيهما بعينين حمراوين صغيرتين ، من وسط بيته. فعل ڤان هيردن ما كان ميچور كاروثرز يفضل الموت على أن يفعله: مزق بيت العنكبوت بيديه العاريتين ، وسحق العنكبوت بين أصابعه ، ومسحها بلا اكتراث في الجدران ليخلصها من الخيوط الحريرية العالقة بها ومن جسم الحشرة الطرى اللزج. أعلن: « سيكون جميلا ».

لم يكن ليقبل دعوة إلى وجبة طعام ، لذلك أوضح أن هذه مجرد ترتيبات عمل. لكنه طلب بأدب (كارها اضطراره أن يطلب معروفاً) مرتب شهر مقدما. ثم انصرف على دراجته إلى المتجر ، على مسافة عشرة أميال ، ليشترى ما يحتاج لمعيشته.

عاد ميچور كاروثرز إلى زوجته المريضة بإحساس مثقل ، أثاره كونه مسئولا عن اضطرار كائن بشرى آخر إلى أن يقاسى مثل هذه الظروف. لم يكن بإمكانه إحضار الرجُل إلى المنزل: خامرت الفكرة رأسه ، وتم استبعادها بسرعة. لم يكن هناك شيء مشترك بينهما ، وكان يمكن أن يضايقا بعضهما. هكذا فكر في الأمر بينه وبين نفسه. أضف إلى ذلك أنه لم يكن هناك مكان له في الواقع. أما في قرارة نفسه فكان ميچور كاروثرز يدرك أنه لو كان

مساعده الجديد رجُلا إنجليزيا - له نفس التربية - لوجد ركنا في منزله وترحيبا كصديق. طرح ميچور كاروثرز هذه الأفكار جانبا: كان عنده ما يكفي من هموم دون الاضطلاع بمشاكل إنسان آخر.

هذا الرجُل - الذى كان يكره دائما العمل المنظم ، الذى كان يعنى تقسيم المسئولية مع آخرين - وجد أنه من الصعب أن يرتب مع ڤان هيردن كيفية إدارة العمل. لكن لأن الهولندى كان يجيد رعاية الماشية ، سلَّم ميچور كاروثرز كل ماشية المزرعة لرعايته ؛ وهكذا أراح ذهنه من أكثرالأعمال إزعاجا له ، ذلك أنه كان عديم الفائدة للبهائم ، وكان يدرك ذلك.هكذا بدأ: كل يعرف تمام أين يقف. كان يمكن لڤان هيردن أن يقدم تقارير موجزة في نهاية كل أسبوع ، على طريقة ملاحظ عمال خبير يقدم تقريره لرئيس يجهل الأمور الفنية - وقَبِلَ ميچور كاروثرز هذا الموقف ، لأنه كان يحب أن يحترم الناس ، وكان من السهل أن يحترم موهبة ڤان هيردن الملهمة تجاه الحيوانات.

كان ميچور كاروثرز سعيداً إلى حد كبير لعدة أسابيع - هكذا انزاح الخوف من أن يضطر إلى طلب قرض آخر من أخيه - والأسوأ منه ، أن يطلب فلوس الانتقال إلى انجلترا وعملا ، مبررا بذلك اعتقاد أسرته أنه شخص فاشل ، فرغم أن استخدام مدير لم يحسن الأمور في حد ذاته ، تطلَّب الأمر عملا ، قراراً ، ولم يجد هو شيئا أكثر رعبا من اتخاذ القرارات. أثار فيه ، التفكير في عائلته في انجلترا - وخاصةً أخاه الأكبر - إنفعالات استياء ملأته ضجرا وغيظاً - نكَّدت رسائل أخيه عليه حياته حتى صار يكره أيام البريد. كانت رسائل مؤثرة مقتضبة ، لا تراعي مشاعر الآخرين ، لكنها عن الفلوس ، الحوالات المصرفية ، سندات التأمين. ولم يكن ميچور كاروثرز يرى الحياة كذلك. لم يكتب إلى أخيه منذ ما يزيد على العام. أما زوجته - عندما بدت صحتهاجيدة - فكانت تكتب مرة كل أسبوع بروح من يستعطف القدر.

حتى هي كانت مبتهجة بقدوم المدير الجديد ؛ أحست بانشراح صدر زوجها على نحو غير منطقي خلال تلك الفترة القصيرة ، وحملت نفسها على السؤال عن المزرعة: وبدأ يرى أن اهتمامها بالحياة يمكن أن ينتعش سريعا إذا أصبح أسلوبها في الحياة ميسورا من جديد.

لكن بعد حوالي شهرين من قدوم ڤان هيردن ، كان ميچور كاروثرز يمشي في طريق المزرعة في اتجاه حقوله ، عندما أدهشه أن يرى طفلا صغيرا كتانيّ الشَّعر يختفي في الأدغال. نادى عليه لكن الطفل تجمد كما يتجمد حيوان ، وتسطح على الخضرة. أخيرا ، عندما لم يتلق ردا ، اقترب ميچور كاروثرز من الطفل ، الذي تلاشى إلى الخلف بين الأشجار ، وتتبعه على الطريق إلى الكوخ - كان بالغ الغضب ، لأنه أدرك ما سوف يراه.

لم يكن ذهب إلى الكوخ منذ أن سلّمه لڤان هيردن. كانت هناك الآن أرض فضاء مقطوعة الأشجار ، وبين بقايا الجذوع المقطوعة والحشائش التي سُوِّيت بالأرض ، وجد نصف دستة أطفال ، كل مهم كتّاني الشَّعر مثل الطفل الأول ، بنفس تلك السَّحْنة الشاحبة الواهنة الشائعة بين الأطفال البيض في المناطق الاستوائية الذين تعرضوا أكثر مما ينبغي لحرارة الشمس.

كان قد تم بناء سقيفة ملحقة بالكوخ ، كانت مجرد سقف من صفائح بنزين مطروقة ، تم ترقيعها - مثل القماش - بسلك ومسامير وثُبِّتَت على فرعي شجر لم يُنْزَع لحاؤهما. هناك وقفت امرأة ضخمة قذرة تمسك بحلّة فوق نار مكشوفة يقترب لهبها من السقف القش على نحو خطر. ذكّرته بأنثى خنزير بين صغارها ، عندما رفعت رأسها ، والأطفال يتدافعون حولها وحملقت فيه بارتياب بعينين شاحبتين لهما أهداب بيضاء.

سأل: « أين زوجك ؟ ».

لم ترد. انقلب شكُّها إلى حملقة من مقت : كان واضحا أنها لا تعرف الانجليزية.

وهو يتقدم غاضبا بخطى واسعة نحو باب الكوخ ، رأى أنه يزدحم بسريرين ضخمين من طراز محلّي: كانت شرائط من جلد حيوان مدبوغ على قوائم خشبية مغروزة في طين الأرضية. وكان الفراغ الباقي مكدسا بممتلكات الأسرة المتسخة والمحطمة. هرول ميجور كاروثرز بحثا عن ڤان هيردن. وكان غضبه يمتزج في تلك اللحظة بانزعاج مخجل وهو يحاول أن يتصور ما يعنيه العيش في مثل تلك القذارة.

تصاعد الخوف عاليا في داخله. لبضع لحظات ، استغرق في مشهد أرض أحلامه: بلَد كئيب يمتلىء بنُذُر خطر لا مهرب منه ، عانى فيه مما لم يكن يسمح لنفسه بأن يتصوره أثناء اليقظة: البؤس المريع الذى كان يمكن أن يحل به إذا لم يتغير حظه ، وإذا رفض أن يخضع لأخيه ويعود إلى انجلترا.

عندما سار بين الحقول ، حيث كانت الذرة تتموّج فوق رأسه ، بلون ذهبي شاحب يعلوه زبد أبيض ، والأوراق الحادة الجافة تتمايل هشّة مع الريح ، لم يستطع أن يرى شيئا عدا ذلك الكوخ الكالح العفن والأطفال المثيرين للشفقة والذين لا مستقبل لهم. كان ذلك أحط ما يمكنه أن يذهب إليه بطفليه !. أحس بأنه ضائع ، عاجز ، خائف: جرى عرقه باردا على جسمه. ولم يتردد في تفكيره ؛ حدّث نفسه – مدفوعاً بالخوف والغضب – بأنه ينبغي أن يكون صلبا » كان يفتش في عقله عن الكلمات التي سيطرد بها الهولندى الذى أيقظ أسوأ كوابيسه ، في مزرعته هو ، في نور النهار الساطع ، حيث لا مهرب منها.

وجده مع ثور صغير يصرخ ويخور ، كان يروّضه على جرّ المحراث ، كان يوجهه بفهمه الواثق للحيوانات. على مسافة حذرة ، وقف السكان الأصليون الذين كانوا يساعدونه. بينما كان ڤان هيردن يصارع الحيوان بحزم وبدون خوف من مسافة قصيرة. رأى ميجور كاروثرز ، ترك القرن المندفع نحوه والذى كان يمسك به ، وانطلق الثور مسرعا إلى الخلف ، يخور غاضبا نحو جمع السكان الأصليين ، وقد تحلّقوا في غير إحكام حوله

بالعصى والحجارة ليمنعوه من الهرب تماما .

وقف ڤان هيردن بلا حراك ، يمسح العرق عن وجهه ، وكان لا يزال يبتسم ابتسامة عريضة راضيا عن الصراع ، وينتظر مستخدمه أن يتكلم.

قال ميچور كاروثرز دون تمهيد: « ڤان هيردن ، لِمَ لَمْ تخبرني أن لديك أسرة ؟ ».

أثناء كلامه ، تبدّل وجه الهولندى ، فى البداية احمرّ من فرط الإحساس بالذنب ، ثم انقلب صلبا وعنيدا . « لأننى كنت بلا عمل لمدة سنة ، وكنت أعرف أنك لا يمكن أن تأخذنى لو أخبرتك ».

واجه كلٌّ من الرجلُين الآخر ؛ ميچور كاروثرز ، طويل ، متحفّز ، بطىء الحركة ، تثقل المسئولية كاهله ، وڤان هيردن صلب وجرىء. بقى السكان الأصليون حول الثور ، ليمنعوا هروبه - بالنسبة لهم كانت هذه استراحة قصيرة من العمل الحقيقى بالمزرعة - واختلطت صيحاتهم مع خوار الثور المتصل. كان يوماً حاراً ، مسح ڤان هيردن العرق عن عينيه بظهر يده.

« لا يمكنك الاحتفاظ بزوجة وكل أولئك الأطفال هنا - كم عدد الأطفال ؟ ».

« تسعة ».

فكّر ميچور كاروثرز فى طفليْه ، وفى قلقه المؤلم البليد الأبدى عليهما ، وانفطر قلبه حزنا من أجل ڤان هيردن. طفلان بكل هذا القلق على كل شىء يأكلانه ويلبسانه ويفكران فيه ، وعلى المستقبل الذى ينتظرهما ، كانا عبئا بالغ الجسامة ؛ كيف نجح هذا الرجل ، مع تسعة أطفال ، فى أن يبدو شابا هكذا ؟.

سأل فجأة بلهجة مغايرة: « كم عمرك ؟ ».

« أربعة وثلاثون » قالها ڤان هيردن فى شك غير قادر على أن يفهم مقصد ميچور كاروثرز.

كانت العلامات الوحيدة على وجهه تجاعيد أحدثتها الشمس ؛ كان من

المستحيل أن تتصور أنه أب لتسعة أطفال وزوج لتلك المرأة البغيضة المعتلة. عندما حملق فيه ميجور كاروثرز ، أحسَّ بخطوط التوتر على وجهه هو ، وحاول أن يَفُكَّ نفسه ، لأنه أخذ على أسوأ محمل ما كان يتحمله هذا الرجلُ على خير وجه.

« لا تستطيع أن تحتفظ بزوجة وأطفال في ظل هذه الظروف ».

« كنا نعيش في خيمة في الدغل على وجبة الذرة وعلى ما كنت أصطاد ، على مدى تسعة أشهر ، وكان ذلك خلال موسم المطر » أجاب ڤان هيردن في جفاء.

أدرك ميجور كاروثرز أنه مهزوم. قال بغضب: « أنت وضعتني في موقف مضلل ، يا ڤان هيردن. أنت تعلم أنه ليس بمقدوري أن أعطيك نقودا أكثر. لا أعرف في الواقع من أين سآتي بمصاريف طفليّ في المدرسة. أخبرتك بالموقف عندما جئت. ولا أستطيع أن أتحمل الاحتفاظ برجُل له مثل هذه الأسرة ».

قال ڤان هيردن بتجهم: « أيضا لا أحد يستطيع أن يتحمل استخدامي ».

« كيف يمكنني أن أتركك تعيش في أرضي بمثل هذه الطريقة ؟ تسعة أطفال ! كان يجب أن يكونوا بالمدرسة. ألم تعلم بوجود قانون يوجب ذهابهم إلى المدرسة ؟ أليس هناك أي شخص يساعدك في تربيتهم؟ ».

« لم يجدوني بعد ولن يجدوني ما لم يخبرهم أحد ».

في مواجهة هذا التحدي ، الذي كان أيضا تحديا مفعما بالنفور ، بقي ميجور كاروثرز صامتا ، إلى أن قال بغلظة: « تذكر ، أنا لست مسئولا ». وانصرف بكل مظاهر الغضب.

نظر ڤان هيردن في أعقابه ، بوجه حائر. لم يعرف ما إذا كان مطرودا أم لا. بعد بضع لحظات بلّل شفتيه الجافتين بلسانه ، مسح عينيه بيده مرة ثانية ، واستدار إلى الثور. نظر ميجور كاروثرز من فوق كتفه من

نهاية الحقل ، واستطاع أن يرى هيئته القصيرة الممتلئة الصلبة تثب وتنحنى حول الثور وكل المزرعة تدوى بالغضب من خواره.

قرّر ميچور كاروثرز ، مرة وإلى الأبد ، أن يستبعد الأسرة من تفكيره. ولكنهم استحوذوا عليه ، حتى أنه كان يحلم بهم ، ولم يستطع أن يحدّد من ملأ نومه بالخوف ، أهما طفلاه هو أم أطفال الهولندى.

كان وقتا من أكثر أوقات العام ازدحاماً بالعمل. وكان مُرْهقا مثل كل زملائه أصحاب المزارع بمشاكل العمالة ، كان توزيع مهام المزرعة مشكلة يومية. طوال اليوم كان عقله ينشغل في بلادة بالضروريات: هذا السياج ملح ، ذلك الحقل يجب حصده في الحال ، حتى رغم هذا ، قرر أن الإنصاف يوجب عليه أن يبنى كوخاً ثانيا بجوار الكوخ الأول. لم يكن لهذا أن يفعل أكثر من التخفيف من حدة معاناة تلك الأسرة البائسة ، لكنه أدرك أنه لن يستريح قبل أن يتم بناؤه.

بمجرد أن اتخذ قراره وأخذ يتفكر فى كيفية تدبير هذا الأمر ، جاءه رئيس العمال ، قائلا أنه إذا لم يرحل الهولندى ، فسيترك هو وأصدقاؤه المزرعة.

« لماذا ؟ » ، سأله ميچور كاروثرز ، مدركا ماذا ستكون الإجابة. كان ڤان هيردن عاملا مُجداً ، وكانت الماشية تتحسّن أسبوعاً بعد أسبوع تحت رعايته ، لكنه لم يكن يحسن التعامل مع السكان الأصليين. كان يزعق فيهم ، ويحتد عليهم ، ويعاملهم كأنهم كلاب. وكان هناك تصادم مستمر.

قال رئيس العمال ببساطة: « الهولنديون ليسوا جيدين » ، معبرا عن كُرْه الرجُل الأسود لذلك القطاع من البيض الذين يعتبرهم أشد مُضطهِديه وحشية.

فى تلك الفترة ، كان ميچور كاروثرز فخورا بأنه ، فى الوقت الذى كان فيه معظم أصحاب المزارع مضطرين إلى شراء العمالة من مقاولى الأنفار ، كان بوسعه أن يجتذب عددا كافياً من العمال يأتون طواعية للعمل فى

مزرعته. كان مستخدماً جيدا ، فخوراً بسمعته الحسنة بفضل معاملته المنصفة. كان يعمل لديه كثير من السكان الأصليين منذ سنوات ، وكانوا يحصلون من وقت لآخر على إجازات بقراهم الأصلية لعدة شهور ، لكنهم كانوا يعودون إليه دائما. كان جيرانه يشكون من السلوك المشاكس لعمالهم: حتى ذلك الحين ، أمِن ميجور كاروثرز هذا الجانب لذلك الشكل من المقاومة السلبية الذى كان يمكنه أن يؤدى إلى إفلاس صاحب مزرعة. كان سيرا على نصل السكين ، لكن هذه الصلة الإنسانية البسيطة مع عماله كانت أعظم مصادر قوته ، وكان يدرك ذلك.

وقف يفكِّر ، بينما كان رئيس عماله – الذى قضى فى هذه المزرعة اثنى عشر عاما – ينتظر ردا. كان يخاطر بالكثير. فكَّر ميجور كاروثرز للحظة فى طرد الهولندى ، أيقن أنه لم يكن بوسعه أن يحمل نفسه على أن يفعل ذلك: ماذا يمكن أن يحدث لكل أولئك الأطفال ؟ قرر أن ينهج نهجا كان كريها له. اعتزم أن يلجأ إلى شفقة مستخدمه.

« عاملتك دائما بإنصاف ؟ » سأل. « ساعدتك دائما كلما وقعت فى مشكلة؟ ».

وافق رئيس العمال فورا ، وبحرارة.

« أنت تعلم أن زوجتى مريضة ، وأننى أنوء بالكثير من المشاكل فى الوقت الحالى؟ لا أريد أن يذهب الهولندى ، خصوصا الآن والعمل بالغ الكثافة. سأتحدث إليه ، وإنْ حدثت بعد الآن مشاكل مع الرجال ، حينئذ تعال إلىّ وسوف أتولاّها بنفسى ».

كان يوماً صافياً متألقا ، مع درجة من البرودة فى الهواء حركت مزاج ميجور كاروثرز الرقيق ، عندما وقف ينظر – مناشدا – إلى الوجه المتجهم للرجل الأسود. فجأة ، وهو يشعر بالهواء النقى يغسل وجنتيه ، ويراقب الأوراق تهتزّ بتموّج ذهبى على الشجر أسفل المنحدر ، أحسّ بأنه أسمَى من مصاعبه ، وبأنه قادر على مواجهة أى شىء. قال بابتسامته النادرة الحييّة:

« تعال ، بعد كل هذه السنوات ، حيث عملنا سويا لمدة طويلة جدا ، يمكنك بالتأكيد أن تفعل هذا من أجلي. لن يكون هذا لزمن طويل جدا! ».

شاهد وجه الرجل يلين استجابة لوجهه هو ؛ وتعجب من الاستخدام غير الواعي للعبارة الأخيرة ، لأنه لم يكن هناك ، في واقع الأمر ، مبرر لئلا يستمرّ الوضع كما هو زمنا طويلا جدا.

بدأ يضحكان معاً ، وافترقا مبتهجين ، والأفريقي يهزّ رأسه أسًى لجسامة التضحية المطلوبة منه ، محوّلا بذلك الحدث إلى نكتة ، ثم اختفى مندفعا إلى الدغل ليشرح الموقف لزملائه العمال.

كبح ميچور كاروثرز رغبة قوية في الذهاب خلفه ، ليقضي اليوم الجميل المنعش متنزها ، وذهب إلى حجرة نوم زوجته ، مفعما بثقة يصعب تفسيرها ومندفعاً مثل شاب.

كانت ترقد كعادتها: الوجه جهة الحائط ، وكتفاها الناتئتان ظاهران من تحت روب النوم الوردي الرخيص الذي كان اشتراه لمرضها. بدت لا أفضل ولا أسوأ. لكن عندما أدارت رأسها ، أصيبت بعدوى ابتهاجه ، ربما كانت تحسّ أيضا بالنهار المنعش خارج ستائرها القاتمة.

ما نوع الخلاص الذي كانت تنتظره ؟ تساءل ، بينما كان يسوّي برقّة ملاءاتها ووسائدها ، ووضع يده برفق على رأسها. فوق التجويف العظمي للجمجمة ، كان الجلد رقيقا وضاربا إلى الزرقة. فيم كانت تفكر؟ تخيل مخها كحيوان صغير خائف يختلج تحت أصابعه.

سألت ، ومازالت عيناها مغلقتين ، بصوتها الرفيع الشكّاء: « لمَ لا تكتب إلى چورچ ؟ ».

تقلّصت أصابعه لا إراديا على شعرها ، مما جعلها تجفل وتفتح عينيها المحتقنتين اللائمتين. كان ينتظر موضوعها المعتاد: الطفلان ، صحتي ، مستقبلنا. لكنها تنهدّت وظلّت صامتة ، كانت لا تزال وفيّة للرجل كما تصوّرته عندما تزوجّت منه ، وأمكنه أن يتكهّن تفكيرها: الغرور المزهو الأحمق

للرجال.

مدركا أن المسألة بالنسبة لها كانت مجرّد انتظار لهزيمته ، كخلاص لها ، سحب يده بكراهية ، قائلا: « ليست الأمور سيئة إلى هذا الحد ، حتى الآن ». كانت بهجة صوته صادقة ، كان مايزال محتفظا بالشجاعة والأمل المنطبعين في نفسه من النهار المشرق بالخارج.

« لماذا ، ماذا حدث ؟ » سألت بسرعة وقد قوى صوتها فجأة ، وهى تنتظر إليه بأمل.

قال: « لا شيء » وخيم عليه الإحباط من جديد. حقا لم يحدث شيء ، وكانت ثقته خدعة عصبية. ترك الحجرة بهدوء ، وهو يفكر: يجب أن أبني ذلك البئر ، وعندما يتم ، يجب أن أنشيء المصارف ، ثم ... كان يفكر ، أيضا ، في أن على كل تلك الأشياء أن تنتظر الكوخ الثاني.

والغريب أن المشكلة الصغيرة نسبيا لذلك الكوخ استحوذت على تفكيره خلال الأيام القليلة التالية. وكرجلٍ متمهّل ومدقّق ، حدّد لنفسه المهام وباشرها واحدة إثر أخرى.

منذ الكريسماس ، والعمال مستمرون في العمل سبعة أيام في الأسبوع ، لكي يحافظوا على التفوق في المباراة ضد الأعشاب الضارة. بالطبع كانوا مستائين من ذلك ، لكن كانت تلك هي العادة. الآن بعد زراعة الذرة ، كانوا يتوقعون أن يهدأ العمل ، وتوقعوا أن تعاد إليهم عطلات الأحد. أن يطلب حتى من نصف دستة منهم التضحية بإجازتهم الأسبوعية من أجل خاطر الهولندي الكريه ، ربما عجّل بحدوث أزمة. أخذ ميجور كاروثرز وقته ، وتحيّن فرصته مثل صياد ، حتى جاء مساء كان يتحدث فيه مع رئيس عماله رجلا لرجلٍ عن مشاكل المزرعة ؛ لكن عندما تطرّق إلى موضوع الكوخ ، وجد ميجور كاروثرز أنه يمكن أن يحدث ما كان يخشاه: على الفور انقلب الرجلُ عنيدا وغير متعاون. فجأة قال بصبر نافد: « يجب أن يتم البناء الأحد القادم. من الممكن أن ينهيه ستة رجال في يوم واحد ، إذا ما عملوا بجد ».

أصبحت نظرة الرجُل الأسود عدائية وغير صريحة. مستجيبا السلطة التـى يحملها الصوت أجاب: « نعم ، ياريس » كان يتقبل الأمر الصادر من أعلى ، ولكنه كان يرفض المسئولية: انقطع تعاونه: صار آلة لنقل الأوامر. لم يكن لشىء أن يغضب ميچور كاروثرز أكثر من أن يحدث هذا. قال بحزم: « لن أتحمل أى كلام فارغ. إذا لم يتم بناء ذلك الكوخ ، ستحدث مشكلة ».

قال رئيس العمال مرة أخرى: « نعم ياريس ». انصرف ، واستوقف بعض السكان الأصليين الذين كانوا يغادرون الحقول وفئوسهم على أكتافهم ، وأبلـغ الأمر فى صـوت محايد. رآهم ميچور كاروثرز يتطلعون إليه بعداء رهيب ، ثم أداروا رءوسهم ، ورحلوا ، مؤلفين جماعة واحدة ، فى اتجاه مساكنهم.

سيكون كل شىء على مايرام – هكذا فكّر ، بارتياح لا يتناسب مع الموقف. كان من الصعب أن يحدّد ما الذى يخشاه بالضبط ، ذلك أن مسألة الكوخ كانت تلوح له بالغة الضخامة حتى أنه بدأ يشعر بنذير خرافى تقريبا. فمع انحداره من فشَل إلى فشَل ، أخذ القدر يتجسد له كقوة خبيثة باردة ؛ وخلق لديه التوازن الحذر للاحتمالات العدائية التى تشكل أساس كل تخطيطه. حساسية حادة تجاه المستقبل؛ وكان قد تعلّم أن يحترم أحلامه وتكهناته. فى تلك اللحظة تعجَّب من قوة رغبته فى أن يرى ذلك الكوخ مبنيا ، أيا كان الخطر الذى كان سيجره عليه.

ذهب إلى قطعة الأرض الفضاء ليقابل ڤان هيردن ويخبره بما خَطَّط. وجده جالسا فوق صندوق شموع فى مدخل الكوخ ، يلعب بمزاج رائق مع أطفاله ، كأنهم كلاب صغيرة: يشقلبهم فى الهواء ، يفرقع أصابعه فى وجوههم ، ويضحك ملء فيه فى حماسة صبيانية عندما هدّده أحد الصغار بقبضتيه فى لحظة انفعال اعتراضا على معاملته غير المكترثة ، والمهينة تقريبا ، لهم. سمع ميچور كاروثرز تلك الضحكة الصبيانية مندهشا ، ونظر بحيرة إلى الهولندى الشاب ، ثم منه إلى زوجته ، التى كانت تراقب باهتمام –

كعادتها – صفيحة بنزين تهتز فوق اللهب القليل. ملأت رائحة لحم وقرع جوّ الأرض الفضاء. بدت المرأة لميچور كاروثرز تعبيرا عن قوة طبيعية منفلتة أكثر منها إنسانة: رآها فى بدانتها المترهلة ، ووجهها الغبى البليد ، واستجاباتها الغريزية لأطفالها – سواء فى حنانها أو ثورتها – كرمز للخصوبة – كجيشان قوىٍّ لا يقاوم للمادة. أفزعته. حوّل عينيه عنها ، وأوضح لڤان هيردن أن كوخا ثانيا سيتم بناؤه هنا ، بجوار الكوخ القائم.

كان ڤان هيردن مسرورا. رقّ منقلبا إلى مودّة سريعة واثقة. نظر مستريبا خلفه إلى الكوخ الصغير الذى كان يأوى أحد عشر كائنا بشريا ، وقال أنه لم يكُن من السهل فى الواقع أن يعيش فى مثل هذا المكان الصغير مع أطفال بهذا العدد. رمَق الأطفال وهو يصفعهم فى حنان بينما كان يتكلم ، مبتسما مثل طفل. كان فخورا بأسرته ، بقدرته هو على إنجاب أطفال: كان بوسع ميچور كاروثرز أن يرى ذلك. ابتسم قليلا ، ثم نظر خلال المدخل إلى القذارة الكئيبة فى الداخل وانصرف مسرعاً ، وهو يمنع نفسه بحزم من إمعان النظر فى الحقائق المنفرة التى تنطوى عليها مثل حياة التكدس تلك.

فى مساء السبت التالى ، قاس هو وڤان هيردن قطعة الأرض الفضاء باستخدام شريط القياس وميزان الماء ، لتحديد مساحة الكوخ الجديد. كان سيغدو كوخاً أكبر. فى ذلك الحين كانت حزَم حشائش السقف مكومة لتكون جاهزة لليوم التالى ، تلمع بلون نحاسى تحت شمس الأصيل ؛ وتراصت فى الأرض الفضاء أعواد أشجار الزعرور ، منزوعة اللحاء ، من أجل الجدران ، وكان خشبها الداخلى الناعم يبدو أبيض مثل نويات الفاكهة.

فى ذلك الأحد ، توقّع ميچور كاروثرز أن يصل السكان الأصليون من مساكنهم من أجل البناء قبل مطلع النهار. كان هناك حتى قبل أن تصحو الأسرة ، خشية أن يحدث خطأ ما فى حالة عدم وجوده. كان يخشى انفعال الهولندى بسبب المزاج المشاكس للعمال.

استند على شجرة يراقب استيقاظ الدغل ، فيما كانت السماء تفيض بالضوء تدريجيا ، والطيور تغنّي من حوله. ظلّ الكوخ - لفترة طويلة - صامتا ومظلما. تدلّى كيس منبعجا على الباب ، وأمكنه أن يلمح أشباحا محتشدة بداخله. بدا له ذلك مرعبا ، أشبه بحظيرة كلب نتنة تنكمش في خجل على الأرض بعيدا عن القبة الواسعة للسماء الزرقاء المنعشة. ثم ، خرج طفل ، وآخر ، وسرعان ما كانوا يتدفقون خارجين من المدخل ، في أسمالهم الصغيرة ، أو سراويلهم الكاكي المعقودة على الأفخاذ النحيلة الناتئة. ابتسموا له في حياء ، عارضين عليه الصداقة. ثم جاءت المرأة ، وهي تتَحرّك بجنبها كي تيسّر لنفسها الخروج من فتحة الباب الضيّقة. كانت ضخمة جدا بحيث كانت على مقاس الفتحة تقريبا. تحركت بطيئة متثاقلة ، يلفها خمول وخدر النوم ، إلى النار الخابية ، رافعة ذراعيها متثائبة ، وتساقطت خصلات من شَعْر أصفر منطفيء على كتفيها ، وارتفع فستانها الفضفاض الداكن مكرمشا تحت رقبتها. في تلك اللحظة رأت ميجور كاروثرز وابتسمت له. للمرة الأولى نظر إليها ككائن بشرى وليس كشيء قبيح إلى حد فاجع. كان هناك شيء حيي ، لكن صريح مع ذلك ، في تلك الابتسامة ، حتى كان بوسعه أن يتخيل الفتاة المراهقة ، القوية الضاحكة ، ذات الشهوانية القوية الصريحة ، المغرية للهولندية الشابة - هكذا كانت عندما تزوجت ڤان هيردن. انحنت بصعوبة لتقلب الرماد ، واندلعت النار في التوّ تحت الرقعة المائلة لسقف الصفيح. لفترة لم يظهر ڤان هيردن ، ولا السكان الأصليون الذين كان من المفترض أن يكونوا هنا منذ مُدَّة طويلة ؛ ظل ميجور كاروثرز مستندا على شجرة ، يبتسم للأطفال ، الذين احتفظوا مع ذلك بمسافة منه ، غير قادرين على اللعب على سجيتهم نظرا لوجوده في المكان ، مبتسما لمسز هيردن وهي تلقي بأحفنة من الذرة في صفيحة من الماء المغلي ، لتصنع عصيدة من نوع محلي.

كانت الساعة الثامنة تماما ، بعد ساعتين من الانتظار القلق ، عندما

جاء العمال في صف على المنحدر الدغلي ، بالفئوس والمعاول على أكتافهم ، متحاشين عينيه. كتم غضبه: فرغم كل شيء كان اليوم يوم أحد ، وهم لم يحصلوا على يوم واحد للراحة على مدى أسابيع ؛ لم يكن بمقدوره أن يلومهم.

بدأوا بحفر الخندق الدائري الذي سيستخدم في تثبيت أعمدة الجدار. بينما كانت معاولهم تدوّي مرتطمة بالأرض الكثيرة الحصى ، خرج ڤان هيردن من الكوخ ، وهو يزيح جانبا الكيس المتدلّي بيد ، ويجذب بنطلونه باليد الأخرى ، ويتثاءب بفظاظة ، ثم ابتسم لميچور كاروثرز معتذرا: « تأخرت في نومي » ، قال ، وبدا أنه يفكّر في أن مستخدمه ربما كان غاضبا.

راقب ميچور كاروثرز العمال عن كثب ، راغبا في أن يكون مفهوماً لهم ولڤان هيردن أنه المسئول. كان واعيا تماما باستيائهم ، وأدرك أنهم سيقومون بالعمل بتعجُّل وإهمال إذا أمكن ذلك. كان بحاجة إلى كل لباقته ورحابة صدره لكي يكتمل بناء الكوخ كما خَطَّط. وقف هناك صابرا طوال فترة الصباح ، يشاهد الشرر الرفيع يتطاير عند ارتطام المعاول بالأرض الصلبة. كان ڤان هيردن يتمشى ببطء قريبا منه ، كارها أن يحل أحد محله علنا في المسئولية عن مسكنه هو أمام أعين السكان الأصليين.

عندما طرحوا معاولهم جانبا ، وذهبوا لإحضار الأعمدة ، فعلوا ذلك وهم يلقون نظرة جانبية خاطفة على ميچور كاروثرز ، يتَحدّونه أن يقول أن الخندق ليس عميقا بما فيه الكفاية. استوقفهم وقال ضاحكا: « هل تحفرون حظيرة لكلب إذن ، وليس كوخا لإنسان؟ ». ابتسم أحدهم مستجيبا على مضض ، وعبس الآخرون. دون حماس عمقوا الخندق إلى أقل درجة كان يمكن أن يقبلها ميچور كاروثرز. عند الظهر ، كانت الأعمدة تميل مترنحة في المكان ، وكان السكان الأصليون يزيلون الأربطة من تحت لحاء الأشجار القريبة. كانت هناك سلَخ طويلة من ليف بألوان وردية ومشمشية وصفراء ، ترقد متشابكة في كومة فوق الحشائش ، وبدت الأشجار المقطوعة كجروح

عميقة حمراء مروّعة حول الأرض الفضاء، وسرعان ما شُدّت الأعمدة إلى بعضها بهذا الحبل الطبيعي ، حتى أنه عندما اكتمل الهيكل بدا على خلفية الأشجار الخضراء والسماء مثل قفص رفيع لامع أبيض يمتزج برقة مع الأصفر الوردي. صعد اثنان من السكان الأصليين إلى أعلى لتثبيت أعمدة السقف في هيكلها المخروطي ، بينما كان الآخرون يدعكون كومة ملاط من رمل وتراب ليكون جصا للجدران – وسرعان ما توقفوا – يمكن للباقي أن ينتظر إلى ما بعد راحة منتصف النهار.

انصرف ميچور كاروثرز عائدا إلى المنزل لتناول الطعام ، منهكا من عبء حفظ التوازن بين الهولندى السريع الغضب والعمال الساخطين. أخذ راحة لمدة ساعة ونصف. أنهى طعامه فى عشر دقائق ، متلهفا إلى أن يتمكن من النوم مرة واحدة فقط إلى أن يستيقظ بشكل طبيعي. كانت زوجته تغالب النعاس ، لذلك رقد على السرير الآخر ، وسرعان ما غلبه النوم. عندما استيقظ وجد أنه تأخر كثيرا عن الوقت الذى كان حدده لنفسه. كانت الساعة تجاوزت الثالثة. نهض مذعورا وهرول إلى الأرض الفضاء ، يستحوذ عليه أحد هواجسه.

هناك وقف الهولندى ، ثائرا محتدا ، يصيح فى السكان الأصليين الذين كانوا يتسكعون أمامه ضاحكين بلا تحفظ. كانوا قد عادوا لتوِّهم إلى العمل. عندما اقترب ميچور كاروثرز ، رأى ڤان هيردن يستخدم كفّيْه المفتوحين فى سلسلة من الصفعات السريعة العنيفة على وجوههم ، ضاربا الواحد منهم بالآخر: بدا وكأنه يصفع أطفاله هو فى نوبة غضب. انطلق ميچور كاروثرز مهرولا ، وألقى بنفسه بين الجماعة آمرا قبل حدوث شيء آخر. تراجع ڤان هيردن إلى الوراء عندما رآه. كان أحمر كلحم البقر من الغضب. تجمع السكان الأصليون معا ، وكانوا على وشك أن يلقوا بأدواتهم ويتركوا العمل.

صاح ميچور كاروثرز فى الرجال: « عودوا إلى العمل » وقال لڤان

هيردن: « سأحقق في هذا الأمر » كانت عيناه تناشدان الإقرار بالحاجة إلى معرفة حقيقة ما حدث ، لكن ڤان هيردن انتصب متحفزا أمامه ، فوق ساقين ثابتتين ، وهو يتنفس بصعوبة. « لكن يا ميچور كاروثرز ...». استهلّ كلامه مُلمّحا إلى أنه كرجُل أبيض ؛ في غياب مستخدمه ، كان من الصواب أن يتولى القيادة. قال ميچور كاروثرز: « افعل ما أقول ». دار ڤان هيردن على عقبيه ، بنظرة حقودة إلى خصومه ، وانصرف عائدا إلى الكوخ. كان الاهتزاز العنيف لكيس الحبوب أشبه بإغلاق باب بعنف. استدار ميچور كاروثرز إلى السكان الأصليين. « استمروا » ، أمر باقتضاب ، بصوت هادىء قاطع. كانت هناك لحظة تشكك ثم التقطوا أدواتهم واتجهوا إلى العمل.

كان بعضهم يربطون هيكل السقف ، وكان آخرون يقذفون الطين على الجدران لتلييسها. كانت عملية "التلييس" تمثل مهرجانا بما يسودها من ضحك ومزاح ؛ كانت توجد فجوات بين القوائم ، وكان يمكن لحفنة من الطين أن تطير خلال فجوة لتستقر على وجه رجُل يقف خلف الجدار: هذا العمل كان يمكن أن يصبح لعبة ، مثل أطفال يلعبون بكرات الثلج. في هذا اليوم لم يكن هناك مظهر لمزاج طيب. عندما غربت الشمس ، إلتقط الرجال أدواتهم وساروا رتلا إلى الدغل دون إلقاء نظرة على ميچور كاروثرز. لم يكن العمل موفقا. كانت الحشائش موضوعة دون نظام فوق هيكل السقف ، لا تزال غير مقصوصة ، وكانت تصل إلى الأرض في حزَم طويلة. ووُضِعت الطبقة الأولى من الطين بطريقة عشوائية. سيكون مبنى متداعيا.

كانت غلطته ، هكذا فكّر ميچور كاروثرز ، مرسلا نظرته الكئيبة البطيئة المرهقة ، إلى الكوخ حيث كان الهولندى ما يزال يتعلق بأشلاء كبريائه الجريح. في اليوم التالى ، عندما كان ميچور كاروثرز في مكان آخر من المزرعة ، استرد الهولندى كبرياءه في مشهد ملتهب متأجج مع عمال الحرث ، وذهبوا يشتكون لرئيس العمال وليس لميچور كاروثرز. جعله هذا يشعر بعدم ارتياح. طوال ذلك الأسبوع ظل ينتظر أن يتلقى شكاوى جديدة حول سلوك

الهولندي. وكثيرا ما كان متوتر الأعصاب ، وهو ينتظر المشهد بينه وبين رئيس عمال متذمر ، إلى حد أنه عندما لم يحدث شيء تعمقت مخاوفه لتستحيل إلى نذير غامض.

انتهى البناء يوم الأحد التالي: دُكّت الأرضيات تماما بروث جديد ، وتم تقليم السقف القش ، وسُوِّيت الحوائط فصارت ملساء ناعمة. كان يجب انقضاء اسبوعين آخرين قبل أن تتمكن الأسرة من الانتقال إليه ، بسبب رائحة الرطوبة في المكان. كانا أسبوعين من القلق لميچور كاروثرز. كان من غير الطبيعي للأفارقة أن يظلّوا سلبيين ومتجهمين إزاء طريقة معاملة الهولندى لهم ، خاصة عندما أدركوا أنه فى صفهم. وكان هناك شيء لا يحبه فى الطريقة التى كانوا يتحاشون بها عينيه وفى السلوك الزائد الأدب لرئيس العمال.

كان الطقس الصافى الجميل الذى أحبه كثيرا جدا عادة ، طقس مايو ، اللاسع البرودة ، المنعش تحت مناخ شديد الصفاء ، اللاذع بعصف الريح محمّلا بأوراق شجر المرج وحشائشه الجافة ، قد أُفْسِد عليه هذا العام: كان هناك شيء ما يوشك على الحدوث.

عندما انتقلت الأسرة إلى الكوخ فى نهاية الأمر ، فتر حماس ميچور كاروثرز ، لأن بناء الكوخ خلق كل هذا القدر من المتاعب والقلق ، بينما بدا فى تلك اللحظة أن الأمور تكاد لا تكون أفضل من ذى قبل : مافائدة كوخين صغيرين مستديرين لأسرة من أحد عشر فردا؟ لكن ڤان هيردن كان بالغ السرور ، وعبّر عن امتنانه بطريقة حركت مشاعر ميچور كاروثرز بعمق: عاجزا عن التعبير عن مشاعره ، كان يمتن عندما يفعل الآخرون ، فيريحونه بذلك من عبء حياته. كان هناك جوٌّ احتفالى فى المساء ، عندما انتُزِع أحد السريرين الكبيرين المنغرزين فى أرضية الكوخ الأول لتنغرز أرجله من جديد فى الكوخ الثانى.

فى نفس تلك الليلة ، أيقظته – قرب الفجر – أصوات تنادى عليه من

خارج شباكه. نهض ، مدركا أن أقصى ما كان يخشاه قد حدث ، سعيدا بزوال التوتر. كان رئيس العمال يقف خارج الباب الخلفى ، ممسكا بمصباح أعاصير أعمى عينىْ ميچور كاروثرز للحظة.

« شبت النار فى الكوخ »

وعيناه تطرفان بشدة ، استدار لينظر. بعيدا فى الظلام كانت ألسنة اللهب تتكاثف فوق الأشجار مطوّقة فروعها وكأن هبّة ريح رفعتها فتراءت تصاوير من أوراق شجر سوداء واضحة وجلية على خلفية الضوء الأحمر المتدفق للحريق. أضاء المرجَ وهجٌ ساطع ومرتعش. جرى الرجلان إلى الدغل عبر الطريق الوعر ، فى اتجاه الحريق.

عندما وصلا ، وجدا الأرض الفضاء مشتعلة ، ساطعة كالصباح. على سقف الكوخ الأول جلس ڤان هيردن مقرفصا ، يرفع صفائح ماء يتناولها من طابور من السكان الأصليين الواقفين على الأرض ، يملأون من برميل الماء الكبير ، وكان يُشبِّع السقف القش بالماء ليمنعه من التقاط ألسنة اللهب من الكوخ الثانى الذى كان يبعد عنه ياردات قليلة ليس غير. أصبح ذلك الكوخ عمودا متأججا من النار. كان هيكله الهش مازال منتصبا ، لكنه كان يلتف ويتلوى متوهجا داخل غلافه من اللهب ، وأخذ ينهار تدريجيا فيما كان هو يقترب ، ثم تهاوى هشيما من شرر.

« الأطفال » قالها ميچور كاروثرز لاهثا لمسز ڤان هيردن ، التى كانت تراقب الحريق فى تسليم بالقضاء والقدر ، من حيث كانت تجلس على لفة بطاطين مبعثرة ، تبلل الدموع وجهها ، وتضم ذراعيها على طفلة ملفوفة.

بينما كان يتكلم ، أزاحت الملابس لتكشف عن الطفلة الصغرى. سقطت كتلة حشائش محترقة من السقف على رأسها وكتفيها . أصابه الغثيان وهو ينظر ، حيث لم يكن هناك سوى لحم دامٍ متفحم. لكنها كانت حيّة: كانت أطرافها ما تزال تختلج قليلا.

« سآتى بالسيارة ونأخذها إلى الطبيب ».

خرج راكضا من الأرض الفضاء وأتى بالسيارة. وفيما كان يندفع هابطا المنحدر عائدا مرة أخرى لاحظ أنه كان ما يزال في بيچامته ، وعندما وصل إلى الأرض الفضاء للمرة الثانية ، كان ڤان هيردن يهبط من سقف الكوخ الذى كان يَقْطُر ماءً كأنه كانت ثمة عاصفة. انحنى على الطفلة المحترقة.

قال: « فات الأوان ».

« لكنها مازالت حيّة ».

هزّ ڤان هيردن كتفيه بلا اكتراث تقريبا ، كان يبدو دائخا. كان يدير رأسه على نحو متواصل ليلقي نظرة شاملة على الكومة المتوهجة التى كانت منذ وقت قريب جدا مسأوى لأطفاله . لعق شفتيه بحركة سريعة لا شعورية ، بسبب جفافهما المحرق. كان وجهه ملطخاً بالدخان وملتهبا من الحرارة الهائلة ، حتى بدت عيناه الصغيرتان تبرقان بشكل مفزع على خلفية البشرة السوداء.

قال ميچور كاروثرز للمرأة: « اركبي السيارة ». تحركت آليا في اتجاه السيارة ، دون أن تنظر إلى زوجها ، الذى قال: « لكن فات الأوان يارَجُل ».

أدرك ميچور كاروثرز أن الطفلة ستموت ، لكن احتجاجه على دمار وعبث الحريق عبّر عن نفسه بهذه الطريقة: يجب عمل كل شىء لإنقاذ هذه الحياة ، حتى مع عدم وجود أمل. أدار السيارة وانزلق هابطا التل. قبل أن يقطعوا نصف ميل، أحس بيد تدفع كتفه من الخلف ، وعندما التفت ، أدرك فى تلك اللحظة أن الطفلة ماتت. استدار بالسيارة إلى الدغل المظلم بعيدا عن الطريق ، وأقفل عائدا إلى الأرض الفضاء. فى تلك اللحظة بدأت المرأة النحيب ، بصوت خفيض ، رتيب ، آليٌ تقريبا ، سمّره فى مقعده ، منتظرا الصرخة التالية.

كانت النار الآن كومة معتمة ، وكانت تتأجّج برفق باحمرار متوهّج عندما تمرّ عليها الريح. وقف الأطفال فى نصف دائرة يحملقون فيها

بافنتان. ووقف ڤان هيردن قريبا منهم ، قلقا ، واضعا يده برقة على رءوسهم وأكتافهم ، مُطَمْئِناً نفسه على وجودهم هناك ، بدمهم ولحمهم ، أحياء إلى جواره.

خرجت مسز ڤان هيردن من السيارة بارتباك وهى لا تزال تنتحب ، واختفت داخل الكوخ ، قابضة على الطفلة الميتة الملفوفة.

أحس ميچور كاروثرز أنه غريب بين تلك الأسرة المنكوبة ، فانصرف عائدا إلى منزله ، حيث شرب فنجانا بعد فنجان من الشاى ، محافظاً على رباطة جأشه ، شاعرا بإجهاد عصبى زائد.

أحنى رأسه داخلا غرفة زوجته ، التى بدت صغيرة ومظلمة ومكتومة، كهف حيوان مريض ، هكذا فكَّر ، باشمئزاز ، ثم خجلا من نفسه ، عاد إلى الخارج ، حيث كان النور يملأ السماء. بعث برسالة إلى رئيس العمال ، وانتظره فى حالة من الغضب والتوتر.

عندما وصل الرجُل سأله ميچور كاروثرز فى الحال: « لماذا احترق ذلك الكوخ ؟. »

نظر إليه رئيس العمال نظرة مباشرة وقال: « كيف لى أن أعرف؟ » ثـم ، بعد لحظة صمت ، ببراءة خادعة: « إنه خطأ المطبخ ، كان أقرب مما ينبغى من السقف القش ».

حملق فيه ميچور كاروثرز ، محاولا إضعاف النظرة المباشرة بعينيه الناطقتين بالاتهام.

« ذلك الكوخ لا بد وأن يعاد بناؤه على الفور: يجب إعادة بنائه اليوم ».

بدا رئيس العمال وكأنه يقول أنه يستوى عنده ما إذا كان سيعاد بناؤه أم لا. قال وهو ينصرف « سأذهب وأخبر الآخرين ».

صاح ميچور كاروثرز بصوت كالنباح: « قف ». ثم صمت لحظة ، مرتعبا ، ولم يكن ذلك بسبب غيظه بقدر ما كان بسبب خزيه وإحساسه بالذنب. كان قد تنبأ بذلك ! تنبأ بذلك كله ! ومع ذلك ، من الجائز تماما أن

يكون الحريق اندلع فى ذلك السقف القش من لهب صغير قليل الحذر يطلق الشرر طوال اليوم قريبا جدا منه.

كاد أن ينفجر فى تأنيب قاس، ثم استجمع نفسه وقال: « اغرب عن وجهى ». فما الفائدة ؟ كان يدرك تماما أن أحد الأفارقة الذين ركلهم أو صفعهم أو صرخ فيهم ڤان هيردن أشعل النار فى ذلك الكوخ ولا يمكن لأحد أن يقدم الدليل على هذا. وقف ساكنا تماما ، يراقب رئيس عماله وهو ينصرف ، وينتش شعرات طويلة فى شاربه فى غضب محبط.

وماذا كان يمكن أن يحدث حينئذ ؟.

طلب طعام الإفطار ، شرب فنجانا من الشاى ، وأتلف قطعة خبز محمص، ثم نظر مرة أخرى إلى الداخل نحو زوجته ، التى كان يمكن أن تظل نائمة ساعتين بعد ذلك.

وهو ينتش شاربه من جديد بقلق ، اتجه ميچور كاروثرز إلى الأرض الفضاء.

كان كل شىء فى موضعه تماما ، رغم أن كومة الأنقاض السوداء بدت منخفضة ورثة حينئذ بعد أن طلع الصباح وأبرز المظهر الوحشىّ للسماء والدغل. كان الأطفال يلعبون قريبا ، وكانت أيديهم ووجوههم سوداء ، وأسمالهم البالية سوداء. بدا كل شىء ملطخا وملوثا بالسواد ، وعلى أحد الجانبين وقفت الأشجار ذابلة ومغطاة بالسخام ، وكانت الأرض حامية تحت الأقدام.

استند ڤان هيردن على هيكل الكوخ الأول. بدا مقهورا متعبا ، لكن عاديًا فيما عدا ذلك. حيًا ميچور كاروثرز ولم يتحرك.

سأله ميچور كاروثرز: « كيف حال زوجتك ؟ » كان بوسعه أن يسمع صوت أنين صادراً من الكوخ.

« حالتها حسنة ».

تصوّر ميچور كاروثرز أنها تبكى على الطفلة الميتة ، وقال: « سآخذ

طفلتك إلى المدينة بدلا منك ، وأرتِّب للجنازة ».

قال ڤان هيردن: « دفنتها بالفعل ». هزّ إبهامه بعنف مشيرا إلى الدغل خلفهما.

« ألم تسجل ميلادها ؟ »

هزّ ڤان هيردن رأسه بالنفي. تحدّت نظرته المتفرسة ميچور كاروثرز وكأنه يقول: من سيعرف إذا لم يخبرهم أحد ؟ لم يستطع ميچور كاروثرز أن يتكلم : أسكته تفكيره في ذلك الجسد الصغير المتفحم ، المسجّى ، داخل صندوق بضائع أو الملفوف في قطعة قماش ، ملقّى تحت الأرض ، تحت رحمة الحيوانات المفترسة أو النمل الأبيض.

« يأتي واحد ، ويرحل آخر » قال ڤان هيردن أخيرا ، في بطء ، محاولا الوصول إلى فلسفة على سبيل التعزية ، بينما امتلأت عيناه بدموع غليظة.

تفرس ميچور كاروثرز: لم يستطع أن يفهم. أخيرا وصلت إليه معاني الكلمات ، وسمع الأنين الآتي من الكوخ بفهم جديد.

لم تكن الفكرة خطرت بباله قط ، كانت فشلا كاملا لخياله. مادام لديهم تسعة أطفال ، لِمَ لا يكونون عشرة ، لِمَ لا يكونون خمسة عشر ، مادام الأمر كذلك ، أو عشرين ؟ ، بالطبع سيكون هناك مزيد من الأطفال.

قال ڤان هيردن: « كانت الصدمة هي السبب ، كان يجب أن يحدث ذلك في الشهر القادم ».

استند ميچور كاروثرز على جدار الكوخ ، وأخرج سيجارة بحركة ثقيلة. أحس بضعف. أحس كأن ڤان هيردن لطمه ، مبتسما. كان هذا إحساسا سخيفا وغير عادل ، لكنه للحظة كره ڤان هيردن لوقوفه في مكانه قائلا: ستجد مظهرا مختلفا عندما تتوغل حاليا في بلد البؤس الكئيب ، هذا ، الذي تخشاه إلى أقصى حد. أنت ستكُفّ عن الوجود ، ولن توجد طاقة باقية لتلك النوعية التي تفضلها من المشاعر الصافية والوساوس والحسرات ،

عندما يصارع المرء الحياة عاريا.

« نرجو أن يكون ولدا » تطوع ڤان هيردن قائلا ، بود متردد ، كأنه اعتقد أن إظهار عواطفه الخاصة لميچور كاروثرز ربما اعتُبر قلة لياقة. « لدينا خمسة أولاد وأربع بنات – ثلاث بنات » ، صحَّح نفسه ، عابس الوجه.

سأل ميچور كاروثرز بجفاء: « أستكون هي على ما يرام ؟ »

قال ڤان هيردن: « أرجو هذا » ، وأضاف بفخر: « تمت ولادة الطفلة الأخيرة في منتصف الليل ، وكانت السماء تمطر. كان ذلك عندما كنا في الخيمة. ليس هذا شيئا بالنسبة لها ». كان يصغي ، فيما كان يتكلم ، إلى الأنين البطيء من الداخل. وقال: « من الأفضل أن أدخل إليها » وهو يدق غليونه في طين الجدار. انحنى لميچور كاروثرز ، ثم رفع الكيس واختفى.

بعد فترة استجمع ميچور كاروثرز نفسه ، وأرغم نفسه على السير منتصبا عبر الأرض الفضاء مشيّعا بالحملقة الفضولية للأطفال. كان عقله ساكنا وفاقد الحس ، ولكنه سار وكأنه يتحرك إلى غاية. عندما وصل إلى المنزل ، سحب على الفور ورقا وقلما أمامه وكتب ، كانت كل كلمة صعبة وبطيئة مسمارا في تابوت كبريائه كرَجُل.

بعد دقائق اخرى ، دخل إلى زوجته. كانت مستيقظة ، تتقلب على جنبها ، تراقب الباب توقعا لفرج قدومه. « كتبتُ طالبا وظيفة في الوطن » قال ببساطة ، واضعا يده على معصمها الجاف النحيل ، وهو يحس بالنبض البطيء يختلج فجأة في راحة يده.

راقب بفضول فيما تغضن وجهها ، وانسابت دموع العرفان والانعتاق ببطء على وجنتيها تبلّل الوسادة.

تمبـــي الصغيــــر

افتتحت چين ماك كلاستر ، التى كانت ممرضة قبل زواجها ، مستوصفا بالمزرعة فى غضون شهر من وصولها. رغم أنها ولدت وتربت فى المدينة ، إلاّ أن خبرتها كانت واسعة بالسكان الأصليين ، لأنها عملت ممرضة فى عنابر السكان الأصليين فى مستشفى المدينة ، بناء على اختيارها ، لعدة سنوات ، وأحبت تمريض السكان الأصليين وشرحت مشاعرها بالكلمات :« هم مثل الأطفال تماماً ، ويقدِّرون ما تفعله من أجلهم ». لذلك عندما ألقت نظرة تشخيصية متفحصة على السكان الأصليين العاملين فى المزرعة ، صاحت « يالهم من مساكين ! ». وبدأت فى تحويل مصنع ألبان قديم إلى مستوصف مجاني. كان زوجها مسروراً لأن هذا كان سيوفر النقود على المدى الطويل عن طريق الحد من المرض فى المساكن.

كان ويلى ماك كلاستر ، مع أنه أيضاً ولد ونشأ فى جنوب أفريقيا ، اسكتلنديا على نحو مؤكد ولايدع مجالا للشك. ربما كان يؤكد على لكنته تأكيدا لولائه ، لكنه حافظ على كل السجايا الكريمة لقومه بمنأى عن أن يفسدها مناخ يبعث على البطء والكسل. كان فطنا ، نشيطا ، دنيويا ، عمليا ، عطوفا. كان من حيث المظهر ، ضخم البنية ، بوجه مستدير بارز العظام ، وفم ضيق ، وعينين تلطف من نظرتها المغتمة الشرسة تجاعيد

الضحك حولهما. أصبح صاحب مزرعة وهو مايزال صغيرا ، بعد أن خطط لهذه الخطوة لسنوات : لم يكن ممن ينجرفون إلى الأرض بسبب الضيق بوظيفة ، أو بسبب الفشل ، أو بسبب تطلعات مبهمة تجاه "الحرية". أما چين ، وكانت فتاة مرحة وقديرة تعرف ماتريد ، فقد استخفت بخطابها الكثيرين ، وعينها على ويلى ، الذى كان يكتب إليها رسائل أسبوعية من المعهد الزراعى في الترانسفال، وتزوجا بمجرد انتهاء السنوات الأربع لتعليمه المهنى.

كانا فى ذلك الحين فى السابعة والعشرين ، وأحسا بأنهما مؤهلان تماما لحياة مفيدة وممتعة. وكان منزلهما معدا لأسرة. كانا سيبتهجان لو أنهما أنجبا طفلا عقب الشهور التسعة المألوفة بعد الزواج. في الواقع ، لم يأت طفل ؛ وبعد أن مرت سنتان قامت چين برحلة إلى المدينة لترى طبيبا. لم تكن حزينة بقدر ما كانت ناقمة عندما وجدت أنها بحاجة إلى عملية جراحية قبل أن يكون بإمكانها أن تنجب أطفالا. لم تألف فكرة أنها مريضة ، وأحست وكأن الأمر كله لايتفق مع شخصيتها. لكنها استسلمت للعملية الجراحية ، وللانتظار عامين آخرين قبل تكوين أسرة ، بحسها العملى الجيد المعتاد. بينما أحست بالقهر قليلا، افترسها الشك ، على الرغم منها ؛ وإنما بسبب مزاجها المكتئب والمحبط إلى حد ما فى تلك الفترة صار عملها فى المستوصف بالغ الأهمية بالنسبة لها. بينما كانت فى البداية تصرف الأدوية وتقدم النصيحة الطبية المناسبة بشكل روتينى ، ساعتين بعد الإفطار كل صباح ، ألقت الآن بنفسها فى العمل : عملت بكل همة ، وبذلت قصارى جهدها ، وحاولت أن تهاجم مسببات الأمراض قبل أعراضها.

كانت المساكن عبارة عن المساكن المألوفة في مزرعة والتى تتألف من أكواخ غير صحية مبنية من الطين والحشائش ، أما الأمراض التى كان عليها أن تعالجها فكانت ناتجة عن الفقر وسوء التغذية.

لأنها عاشت فى الريف طوال حياتها ، لم تقع فى خطأ أن تتوقع الكثير؛ كانت تتحلى بذلك الصبر الذكى ، الساخر والذى يحقق مع أناس

متخلفين ، أكثر مما يحقق أى قدر من السلوك المثالى الساخط.

اختارت فى البداية قطعة أرض صالحة لزراعة الخضروات ، وأشرفت على الزراعة والاستنبات بنفسها. لا يستطيع فرْد أن يطيح بعادات دامت قرونا فى موسم ، لذلك كانت صبورة مع السكان الأصليين الذين لم يكونوا ليقربوا فى البداية طعاما لم يعتادوا عليه. أخذت تحث وتحاضر. رتبت لنساء المساكن دروسا فى النظافة ورعاية الأطفال. كتبت وصفات لوجبات وطلبت أجولة من الموالح من المزارع الكبيرة ، فى الواقع ، لم يمر وقت طويل حتى كانت چين هى التى تنظم إطعام عمال ويلى الذين يبلغ عددهم المائتين ، وكان ويلى سعيدا بالحصول على مساعدتها. سخر الجيران منهما ، لأنه من المعتاد حتى فى وقتنا هذا إطعام السكان الأصليين على وجبة الذرة فقط ، مع ذبح ثور فى مناسبة عيد دينى. لكن لم يكن هناك أدنى شك فى أن سكان ويلى الأصليين كانوا أوفر صحة من غالبيتهم وكان يحصل منهم على جهد أكبر بكثير. فى صباح الشتاء البارد كانت چين تقف لتوزع على السكان الأصليين أكواب الكاكاو الساخن من برميل تشتعل تحته نار هادئة قبل أن يذهبوا إلى الحقول ؛ وإذا مرّ أحد الجيران وسخر منها ، كانت تزم شفتيها وتقول فى دعابة لطيفة :« إنها الفطرة السليمة الجيدة المستقرة . هذه هى الحقيقة. بالإضافة إلى ذلك – يالهم من مساكين ، يالهم من مساكين ! »، ونظراً لأن آل ماك كلاستر كانا يلقيان الاحترام فى المنطقة ، كان الناس يسايرونهما فيما كان يبدو شذوذا سخيفا.

لكن الأمر لم يكن سهلا ، لم يكن سهلا على الإطلاق. لم تكن ثمة فائدة من علاج غزو دودة الانكلستوما للأقدام التى كانت ستعاود الغزو فى غضون أسبوع ، لأنه لا أحد كان يرتدى حذاء ، ولم يكن بالإمكان عمل شىء للبلهارسيا ، عندما كانت كل الأنهار مليئة بها ؛ واستمر السكان الأصليون يعيشون فى الأكواخ المظلمة القاتمة.

ولكن كان يمكن مساعدة الأطفال ؛ أحبت چين على الأخص الأطفال

السود الصغار. كانت تدرك أن أطفالا أقل ماتوا فى مساكنها من أى مساكن على مسافة أميال حولها ، وكان هذا مفخرة لها. كانت تقضى فترات الصباح بأكملها توضح للنساء أسباب القذارة والتغذية المناسبة ؛ إذا مرض طفل ، كانت تسهر طول الليل معه ، وتبكى بمرارة إذا ما مات. كان اسمها بين السكان الأصليين "ذات القلب الطيب". وثقوا بها، رغم أنهم غالبا ما كانوا يكرهون ويخافون أدوية الرجل الأبيض* ، تركوا چين تشق طريقها ، لأنهم أحسوا أن دافعها العطف ، ويوما بعد يوم أخذت جموع السكان الأصليين الذين ينتظرون للعناية الطبية تزداد ضخامة. ملأ هذا چين بالزهو ، وكانت تتجه كل صباح إلى المبنى الكبير ذى الأرضية الحجرية والسقف القش فى مؤخرة المنزل ، الذى كانت تنبعث منه دائما رائحة المطهرات والصابون ، بصحبة الخادم الذى كان يساعدها ، وكانت تقضى هناك عدة ساعات تعالج الأطفال والأمهات والعمال الذين يصابون أثناء العمل.

كانوا قد أتوا إليها بتمبى الصغير لتعالجه فى الوقت الذى أدركت فيه أنه لم يعد بوسعها أن تأمل فى إنجاب طفل لمدة عامين على الأقل. كان مصابا بما يسميه السكان الأصليون "مرض المناخ الحار". لم تحضره أمه بسرعة كافية ، وحين أخذته چين بين ذراعيها كان هيكلا عظميا نحيلا مليئا بالتجاعيد ، يغطيه جلد رمادى غليظ متهدل ، كانت معدته منتفخة بصورة مؤلمة. « سيموت » أعولت الأم من خارج باب المستوصف ، بتلك النغمة المستسلمة للقضاء والقدر والتى أغضبت چين دائما. قالت بقوة :« هراء! » – حتى بمزيد من القوة لأنها كانت تخشى بشدة أن يموت.

أرقدت الطفل بحنان فى سلة مبطنة ، ونظرت هى والخادم كل منهما إلى وجه الآخر فى تجهم. قالت چين بصرامة للأم التى كانت تنشج يائسة وهى تجلس القرفصاء على الأرض ويداها على وجهها ! « كُفِّى عن البكاء : هذا لن يفيد فى شىء. ألم أعالج طفلك الأول عندما أصيب بنفس المرض ؟ »

* كتبت هذه القصة فى ١٩٥٠ (المؤلفة)

لكن ذلك الصبى الصغير الآخر لم يكن مريضا بنفس درجة مرض هذا الطفل.

عندما حملت چين السلة إلى المطبخ ، ووضعتها بجوار النار طلباً للدفء ، رأت على وجه الطباخ نفس النظرة المتجهمة مثل التى رأتها من قبل على وجه الخادم ، واستطاعت أن تستشعرها على وجهها هى. قالت لنفسها :« هذا الطفل لن يموت. لن أسمح بهذا ! لن أسمح بهذا ». لاح لها أنها إذا استطاعت أن تساعد تمبى الصغيرعلى اجتياز مرحلة الخطر ، فإن حياة الطفل التى كانت تريدها بكل ذلك الإلحاح سوف تُمنح لها.

جلست بجوار السلة طوال النهار ، تريد الطفل أن يحيا ، والأدوية على المائدة بجانبها ، يساعدها الطباخ والخادم ما أمكنهما ذلك. فى الليل جاءت الأم من المساكن ومعها بطانيتها ، وظلت المرأتان ساهرتين معا. بسبب عينى المرأة السوداء المتوسلتين المركزتين ، تحفزت چين أكثر أيضا للتغلب على المرض ؛ وفى اليوم التالى ، والتالى له ، وعبر الليالى الطويلة ، حاربت من أجل حياة تمبى حتى عندما أمكنها أن تدرك من وجوه السكان الأصليين العاملين فى المنزل أنهم يعتقدون أنها لامحالة مهزومة. ذات مرة ، قبيل فجر إحدى الليالى ، وكان الجو باردا وساكنا ، كان الجسم الصغير بارد الملمس ، وبدا منقطع النفس ، ضمته چين قريبا إلى دفء صدرها وهى تتمتم بقوة المرة تلو المرة : ستعيش ، ستعيش – وعندما أشرقت الشمس ، كان الطفل يتنفس بعمق ، وكانت قدماه تنبضان فى يدها.

عندما أصبح واضحا أنه لن يموت ، عم أرجاء المنزل شعورٌ بالسعادة والنصر. جاء ويلى ليرى الطفل ، وقال بحب لچين :« عمل رائع يافتاتى العجوز. لم أتصور أنك ستقومين به ». كان الطباخ والخادم مفعميْن بالرضا والود مع چين ، وقدّما إليها هدايا من البيض والذرة المطحونة عرفاناً بالجميل. أما الأم ، فقد أخذت طفلها بين ذراعيها وهى ترتجف من السعادة وبكت وهى تشكر چين.

كانت چين نفسها – رغم الإنهاك والضعف – أسعد من أن تستريح أو

تتام : كانت تفكر في الطفل الذى سيكون لها. لم تكن بالشخص الذى يؤمن بالخرافات ، ولم يكن من الممكن وصف الأمر فى مثل هذا الإطار: أحست أنها حكّت أنفها ازدراءً للموت ، أنها جعلت الموت ينسل من بابها مهزوما ، والآن كان عليها أن تكون قوية لصنع الحياة ، بأطفال أقوياء أصحاء يخصونها هى ؛ كان بمقدورها أن تتخيلهم وهم يثبون بجوارها ، أطفالٍ رائعين تحمل بهم بقوتها وقدرتها فى مواجهة الموت الجبان.

كانت أم تمبى الصغير تأتى به إلى المنزل يوميا لمدة شهر ، من جهة للتأكد من أنه لن ينتكس ، ومن جهة أخرى لأن چين صارت تحبه. عندما أصبح مُعافًى تماما لم يعد يأتى إلى المستوصف ، كانت چين تسأل الطباخ عن صحته ، وكانت تبعث أحيانا برسالة تطلب إحضاره ليراها. حينئذ كانت المرأة السوداء تأتى باسمة إلى الباب الخلفى ، وتمبى الصغير على ظهرها ، وابنها الأكبر يتعلق بثيابها ، وكانت چين تركض نازلة على السلالم ، تبتسم فى سعادة وتنتظر بفارغ الصبر بينما كان يجرى فك القماش عن ظهر الأم لتكشف تمبى ملفوفا هناك ، إبهامه فى فمه ، بعينين سوداوين كبيرتين رزينتين ، تتشبث يده الأخرى بقماش رداء أمه طلباً للأمان. كانت چين تحمله إلى الداخل كى تريه لويلى وتقول فى رقة:« انظر ، هاهو ذا صغيرى تمبى ، أليس طفلا أسود صغيرا حلوا ؟ ».

أصبح طفلا سمينا خجولا ، يرتبك حائرا بين ذراعى أمه وذراعى چين. فيما بعد عندما قويت ساقاه على حمله ، كان يندفع إلى چين ويضحك عندما ترفعه إلى أعلى. كانت هناك دائما فاكهة وحلوى له عندما يزور المنزل ، وكان هناك دائما عناق من چين وابتسامة ودية لاهية من ويلى.

كان فى الثانية من عمره ، عندما قالت چين لأمه :« عندما تأتى أمطار هذا العام ، سوف يكون لدىّ أنا أيضا طفل ». وكانت المرأتان – متناسيتيْن فرق اللون – سعيدتيْن معا بالطفلين القادمين : كانت المرأة السوداء تنتظر طفلها الثالث.

كان تمبى مع أمه عندما جاءت لزيارة مهد الطفل الأبيض الصغير. مدّت چين يدها إليه وقالت: « كيف حالك يا تمبى ؟ » وأخذت وليدها من مهده ، وقدمته قائلة:« تعال ، وانظر إلى ابنى يا تمبى » لكن تمبى تراجع إلى الخلف ، كما لو كان خائفا ، وأخذ يبكى. قالت چين فى حب: « أنت سخيف يا تمبى » وأرسلت الخادم كى يحضر بعض الفاكهة كهدية. لم تقدم الهدية بنفسها ، لأنها كانت تحمل طفلها.

استغرقها هذا الشاغل الجديد ، وسرعان ما وجدت نفسها حاملا مرة أخرى. لم تنس تمبى الصغير ، بل كانت تفكر فيه فى الواقع كما كان من قبل ، الطفل الصغير الذى كان لا يزال يتعثر فى المشى والذى أحبته بشوق حزين عندما كانت بلا أطفال. ذات مرة لمحت أم تمبى تسير على أحد طرق المزرعة ، تمسك بطفلٍ فى يدها ، وسألتها:« لكن أين تمبى ؟ » ثم أدركت أن الطفل هو تمبى. حيته ؛ لكنها قالت لويلى فيما بعد :« يا إلهى: هيئتهم تدعو للرثاء عندما يكبرون ، أليس كذلك ؟ » ، « من الصعب وصفه بأنه كبر » ، قال ويلى وهى يبتسم لها ملاطفا حيث كانت تجلس وطفلاها على حجرها :« لن تقدرى على جعلهم يتسلقون عليك جميعا عندما يكون لدينا دستة ». كان يداعبها -- كانا قد قررا الانتظار عامين آخرين قبل إنجاب أطفال آخرين ؛ أتى ويلى من أسرة لها تسعة أطفال. صاحت چين بحدة وهى تتودد إليه:« من قال دستة ؟ ». أجاب ويلى:« ولم لا؟ يمكننا ذلك ». دمدمت چين بسرور :« كيف تظن أننى قادرة على كل شىء ؟ ». ذلك أنها كانت مشغولة جدا. لم تترك العمل فى المستوصف ينقطع ؛ كانت ما تزال هى التى تقوم بطلب وتنظيم طعام العمال ، وكانت تعتنى بأطفالها دون مساعدة ، حتى أنها لم تتبع عادة استخدام دادة من السكان الأصليين. والواقع أنه لايمكن لومها على أنها لم تبق على صلة مستمرة مع تمبى الصغير.

خطر تمبى على بالها فى إحدى الأمسيات ، بينما كان ويلى منهمكاً فى نقاشه الأسبوعى المعتاد مع رئيس العمال عن شغل المزرعة. كان يعانى

مرة أخرى من نقص فى العمال ، والأمطار قد هطلت بغزارة ، وامتلأت الحقول بالأعشاب الضارة. وبنفس السرعة التى كانت تنتهى بها جماعات السكان الأصليين من عملها فى أحد الحقول كانت الأعشاب الضارة تبدو أكثر ارتفاعاً من أى وقت مضى. أشار ويلى إلى أنه ربما كان من الممكن أخذ بعض الأطفال الأكبر سنا من أمهاتهم لبضعة أسابيع. كان قد استخدم فعلا مجموعة من الأطفال السود فيما بين التاسعة والخامسة عشرة من أعمارهم تقريبا ، وكانوا يقومون بالأعمال الخفيفة ؛ لكنه لم يكن متأكدا من أنه استخدم جميع الأطفال الصالحين للعمل . قال رئيس العمال أنه سيرى ماذا يمكنه أن يفعل.

نتيجة لهذا النقاش ، دعا الطباخ ويلى وچين ذات يوم وهو يبتسم إلى الباب الأمامى ليريا تمبى الصغير ، الذى كان فى السادسة من عمره تقريبا فى ذلك الحين وهو يقف مزهواً بجوار أبيه ، الذى كان يبتسم هو الآخر. قال والده لويلى وهو يدفع بتمبى إلى الأمام :« هاك رجلاً ليعمل عندك ». حَرَنَ تمبى مثل عجل صغير ، ووقف منكّس الرأس وأصابعه فى فمه. بدا ضئيلا جدا ، وهو يقف منطويا على نفسه ، حتى أن چين صاحت فى شفقة :« لكن يا ويلى ، إنه لايزال مجرد طفل صغير ! ». كان تمبى عاريا تماما ، إلا من عقد من الخرز الأزرق ينغرز فى لحم كرشه السمين. أوضح والد تمبى أن طفله الأكبر والذى كان فى الثامنة يرعى العجول منذ عام وأنه لايوجد سبب يمنع تمبى من مساعدته.

احتج ويلى قائلا :« لكنى لا احتاج إلى اثنين لرعى العجول » ثم قال لتمبى :« والآن يارجلى الكبير ، كم تريد من النقود ؟ ». هنا أطرق تمبى برأسه أكثر ، وهو يلف قدميه فى التراب ، وغمغم :" خمسة شلنات ". صاح ويلى ساخطا :« خمسة شلنات فى الشهر ! وماذا أيضا ؟ لماذا ؟ ذلك أجر الأطفال السود الذين فى العاشرة من عمرهم ». وحينئذ ، عندما أحس بيد چين على ذراعه ، قال بسرعة :« وهو كذلك ، أربعة شلنات وستة بنسات.

يمكنه أن يساعد أخاه الكبير فى العناية بالعجول ». وقفت چين وويلى والطباخ ووالد تمبى يضحكون بعطف عندما رفع تمبى رأسه ، ونفخ كرشه أكثر ، وأخذ يمشى بخيلاء فى الممر ، وهو يبتسم في زهو وتنهدت چين :« لم أكن أتصور هذا قط. تمبى الصغير ! ، لماذا ، يبدو وكأن ذلك كان بالأمس فقط ...».

تطور مظهر تمبى فارتدى مئزرا ، وانضم لأخيه فى رعى العجول ، وبينما كان الطفلان يجريان بجوار الحيوانات ، استدار الجميع ينظرون مبتسمين إلى الطفل الأسود الضئيل ، يختال فى مشيته مبتهجاً ، ويلوّح مزهوا بالغصن الصغير الذى قطعه له أبوه من الدغل ، كأنه راعٍ بالغ مع مجموعته من الدواب.

كان من المفروض أن تبقى العجول طوال النهار بجوار الزريبة ؛ وعندما كانت الأبقار تساق بعيدا إلى المرعى ، كان تمبى وأخوه يقرفصان تحت شجرة ويراقبان العجول : يهبّان ليجريا صائحين إذا حاول أحدها الشرود. ظل تمبى صبيا تحت التمرين على العمل لمدة سنة ، وفى ذلك الحين التحق أخوه بمجموعة الأطفال السود الأكبر سنا العاملين بعزق الأرض ، وقتها كان تمبى فى السابعة ، وكان مسئولا عن عشرين عجلا ، بعضها أكثر ارتفاعاً منه. كان من المعتاد أن يقوم بهذا العمل طفل أكبر بكثير ، لكن ويلى كان يعانى من نقص مزمن فى العمال ، مثل كل أصحاب المزارع ، وكان يحتاج إلى كل زوج من الأيدى يمكن أن يجده للعمل فى الحقول.

قال ويلى ذات يوم ضاحكا لچين :« هل علمت أن عزيزك تمبى أصبح الآن راعيا ممتازا ؟ ». صرخت چين :« ماذا ! ذلك الطفل ! لماذا ، هذا شيء منافٍ للعقل ». نظرت إلى أطفالها بغيرة ، بسبب تمبى ؛ كانت نوعاً من النساء تكره أن تفكر فى أن أطفالها يكبرون. لكن كان لديها ثلاثة فى ذلك الحين ، وكانت مشغولة جدا فى الواقع. ونسيت الولد الأسود الصغير.

ذات يوم ، حدثت كارثة : كان الجو شديد الحرارة ، وغط تمبى فى

النوم تحت الأشجار. جاء أبوه إلى المنزل ، آسفا مضطربا ، ليقول أن بعض العجول هجمت على حقل الذرة وسحقت النباتات بأرجلها . غضب ويلى. كان غضبه من ذلك النوع من الغضب المكظوم الذى لا طائل تحته ولاسبيل لتهدئتـه ، ذلك أن ما أدى إليه كان شيئا لا فكاك منه : كان على الأطفال أن يقوموا برعى العجول بسبب الحاجة إلى البالغين فى عمل أكثر أهمية ؛ ولم يكن من الممكن أن يغضب المرء حقيقة من طفل فى عمر تمبى. أمر ويلى بإحضاره إلى المنزل ، وأعطاه درسا قاسيا بشأن العمل الرهيب الذى ارتكبه. كان تمبى يبكى عندما انصرف ؛ سار وهو يتعثر فى مشيته إلى المساكن ويد أبيه تستقر على كتفه ؛ ولأن الدموع كانت تنهمر غزيرة فلم يكن قادرا على تحديد اتجاه خطاه. لكن رغم الدموع ، ورغم ندمه ، حدث كل هذا مرة ثانية ، قبل أن يمر وقت طويل جدا على ذلك. نام فى الظل الدافىء الباعث على النعاس ، وعندما استيقظ قرب المساء ، كانت كل العجول قد شردت فى الحقول ، وسوّت بالأرض مساحات كبيرة من الذرة. هرب إلى الدغل باكيا ، غير قادر على مواجهة العقاب. وجده أبوه فى تلك الليلة وصفعه على رأسه برفق بسبب الهروب .

والآن كان هذا أمرا خطيرا للغاية فى الواقع. غضب ويلى. أن يكون هذا قد حدث مرة – كان ذلك شيئا سيئا ، لكن يمكن غفرانه. لكن مرتين ، وفى غضون شهر !. فى البداية لم يستدع تمبى ، بل تشاور مع أبيه. قال ويلـى : « يجب أن نفعل شيئا لاينساه ، كدرس له ». قال والد تمبى أن الطفل قد عوقب فى حينه. سأله ويلى :« أنت ضربته ؟ ». لكنه كان يعرف أن الأفارقة لايضربون أطفالهم ، أو ربما نادرا جدا والأرجح أن تمبى لم يعاقَب عقابا جديا. شدّد فى السؤال :« تقول أنك ضربته ؟ » وأدرك ، من طريقة تحويل الرجل لعينيه بعيدا ، وهو يقول :« نعم ياريس » أن ذلك لم يكن حقيقيا. قال ويلى « اسمع ، تلك العجول الشاردة لابد أنها كلفتنى حوالى ثلاثين جنيها. ولا أستطيع عمل شىء. لا أستطيع تحصيل ثمنها من تمبى ، هل استطيع ؟

سأعمل الآن على منع حدوث ذلك مرة أخرى ». لم يرد والد تمبى. «ستأتى بتمبي إلى هنا ، إلى المنزل ، وتقطع عصا من الدغل ، وسوف أعطيه علقة ». قال والد تمبى بعد فترة توقف: « نعم ياريس ».

عندما سمعت چين بالعقاب قالت :« ياللعار ، علقة لصغيرى تمبى...».

عندما حانت الساعة ، أخذت أطفالها بعيدا كى لا يعلق بذاكرتهم مثل هذا الشىء البغيض. أتوْا بتمبى إلى الفراندة ، كان يتشبث بيد أبيه و يرتعد من الرعب. قال ويلى أنه لا يحبذ أسلوب الضرب ؛ ومع ذلك يعتبره ضروريا ، ويعتزم استخدامه. أخذ العصا الطويلة الخفيفة من الطباخ ، الذى قطعها من الدغل ، لأن والد تمبى أتى بدونها ، وحركها فى الهواء حتى أصدرت صفيراً حاداً ليخيف تمبى. ارتعد تمبى أكثر من قبل ، وضغط وجهه على فخذى أبيه. « تعال هنا ياتمبى ». لم يتحرك تمبى ، لذلك رفعه أبوه قريبا من ويلى. « انحنِ ». لم ينحنِ تمبى ، لذلك أحناه أبوه ، مخفيا وجهه الصغير بين ساقيْه. حينئذ نظر ويلى مبتسما لكن بضيق إلى الطباخ ، والخادم ، ووالد تمبى ، الذين كانوا يراقبونه جميعا بوجوه عابسة متحفظة ، لوّح بالعصا إلى الوراء وإلى الأمام فوق ظهر تمبى ، أرادهم أن يروْا أنه يحاول فقط إخافة تمبى بغرض تربيته. لكنهم لم يبتسموا على الإطلاق. فى النهاية قال ويلى بصوت مهيب يوقع الرهبة فى النفس: « الآن ياتمبى ! ». ثم ، بعد أن نجح فى أن يجعل المناسبة مهيبة وغاضبة ، ساط تمبى فى رفق ، ثلاث مرات ، على مؤخرته ، وألقى بالعصا إلى الدغل ثم قال :« الآن لن تفعل ذلك مرة أخرى مطلقا ، ياتمبى ، أليس كذلك ؟ ». وقف تمبى ساكنا تماما ، وهو يرتجف ، أمامه ، متحاشيا عينيه. أخذ أبوه يده برقة واقتاده عائدا به إلى المنزل.

سألت چين « هل انتهى ؟ » وهى تطل من المنزل. قال ويلى مرتبكا: « لم أؤذِه ». كان متضايقا لأنه أحس أن الرجال السود متضايقون منه. قال: « يريدون الجمع بين النقيضين ، إذا كان الطفل كبيرا بما يكفى لكسب

المـال ، فهو كبير إذن بما يكفى لتحمل المسئولية. ثلاثون جنيها ! ».

قالت چين بتأثر: « كنت أفكر فى صغيرنا فريدى ». كان فريدى طفلهما الأول. قال ويلى بنفاد صبر: « وما فائدة التفكير فيه؟ ». « آه ، لا فائدة ياويلى ، لافائدة على الإطلاق » وافقت چين دامعة. « يبدو الأمر فظيعا ، ومع ذلك هل تتذكره ياويلى ؟ هل تتذكر كم كان شيئا حلوا صغيرا ؟ » لم يستطع ويلى أن يطيق تذكُّر حلاوة الطفل تمبى فى تلك اللحظة ، وأحس باستياء من چين لأنها ذكَّرته ؛ كان هناك تقلص طفيف فى المشاعر بينهما لبرهة وجيزة ، وسرعان ما تلاشى ، ذلك أنهما كانا صديقين جيدين ، وكان لهما نفس التفكير حول معظم الأمور.

لم تشرد العجول مرة ثانية. فى نهاية الشهر ، عندما تقدم تمبى ليحصل على أجره : الأربعة شلنات والستة بنسات ، ابتسم له ويلى وقال: « كيف الأحوال معك ياتمبى ؟ ». قال تمبى فى جرأة: « أريد نقودا أكثر ». صاح ويلى مصعوقا: « ما – ا – ا – ذا ؟ ». نادى على والد تمبى ، الذى ترك مجموعة الأفارقة المنتظرين ليسمع ما أراد ويلى أن يقوله. قال ويلى بصوت عالٍ حتى يمكن لكل شخص أن يسمع: « وغدك الصغير هذا ترك القطيع يشرد مرتين ، والآن ، يقول أنه يريد نقودا أكثر ». ضحك العمال. لكن تمبى احتفظ برأسه عاليا ، وقال غير هياب: « نعم ياريس ، أريد نقودا أكثر». قال ويلى شبه ساخط لا أكثر: « أنت تحتاج إلى الجلد على مؤخرتك ». وانصرف تمبى عابسا ، يمسك نقوده الفضية فى يده ، وتلاحقه نظرات ضاحكة.

كان حينئذ فى حوالى السابعة ، رفيعا جدا ورشيق الحركة ، رغم أنه كان لا يزال يحمل كرشه البارز أمامه. كانت ساقاه مفلطحتين وهزيلتين ، وكانت ذراعاه أعرض أسفل الكوع مما أعلاه. لم يعد يبكى فى ذلك الحين أو يتعثر فى خطوه ، كانت هيئته الرفيعة الصغيرة صريحةً ، و – فيما بدت – غاضبةً. كان ويلى قد نسى الحادث.

لكن فى الشهر التالى ، تشبث الصبى بموقفه وجادل فى عناد طالبا

زيادة. رفع ويلى أجره إلى خمسة شلنات وستة بنسات ، قائلا باستسلام أن چين أفسدته. عض تمبى على شفتيه بانتصار ، وعندما انصرف ، سار بخطى صغيرة واثبة مبتهجة ، تحولت فى النهاية إلى عدْو عندما وصل إلى الأشجار. كان مايزال أصغر الأطفال العاملين ، ويتقاضى حينئذ ما يتقاضاه من هم أكبر منه بحوالى ثلاث أو أربع سنوات : هذا ما جعل الآخرين يتذمرون ، ولكنهم كانوا يدركون – نتيجة لموقف چين – أنه كان أثيرا.

فى المجرى الطبيعى للأمور ، كان يلزم أن يمر عام على الأقل ، قبل أن يحصل على أىّ زيادة فى الأجر. لكنه فى الشهر التالى مباشرة ، ادعى الحق فى زيادة أخرى. هذه المرة ، أطلق السكان الأصليون الذين كانوا يصغون أصوات احتجاج عابثة ؛ كان الغلام قد بدأ ينسى نفسه. أما ويلى فقد تضايق حقيقة. كان فى سلوك الطفل شىء ما لحوح ، شىء ما مطالب ، كاد يصل إلى حد الوقاحة. قال بحدة: « إذا لم تمتنع عن هذا الهراء ، سأخبر أباك ليعطيك درسا مؤلما ». اتقدت عينا تمبى من الغضب ، وحاول أن يجادل ، لكن ويلى طرده على نحو فظ مستديرا إلى العامل التالى.

بعد بضع دقائق أتى الطباخ بچين إلى الباب الخلفى وهناك وقف تمبى يبدل قدميه بارتباك ، لكن مبتسما لها بتلهف. قالت فى غموض: « لماذا ياتمبى...» كانت قد أطعمت الأطفال ، وكان عقلها مشغولا بمهام استحمامهم وذهابهم إلى النوم – بأفكار بعيدة تماما عن تمبى. والواقع أنها اضطرت إلى أن تنظر مرتين قبل أن تتعرف عليه ، ذلك أنها كانت تحمل دائما فى خلفية عقلها صورة ذلك الطفل الأسود السمين الجميل الذى حمل ، بالنسبة لها – اسم تمبى. عيناه فقط لم تتغيرا: العينان الواسعتان الداكنتان المتقدتان ، فى تلك الآونة كانتا مثبتتين عليها بضراعة. توسّل إليها: « أخبرى الريس أن يعطينى نقودا أكثر ».

ضحكت چين بعطف: « لكن ياتمبى ، كيف يمكننى أن أفعل ذلك ؟ ليس لى شأن بالمزرعة. أنت تعرف ذلك ».

قال فى ضراعة: « أخبريه يا سيدتى ، اخبريه يا سيدتى ».
أحست چين ببدايات إزعاج. لكنها رأت من المناسب أن تضحك مرة ثانية ، وقالت :« إنتظر دقيقة يا تمبى » دخلت وأحضرت من مائدة عشاء الأطفال بضع شرائح من الكيك ، لفتها فى قطعة من الورق ، ودستها فى يد تمبى. تأثرت وهى ترى وجهه ينبسط ليستحيل إلى ابتسامة مشرقة: لقد نسى موضوع الأجر ، نجح الكيك فى أن يكتسب نفس الأهمية أو أكثر. قال: « أشكرك ، أشكرك » واستدار ، وانطلق مسرعاً نحو الأشجار.
والآن ، لم يعد لدى چين أى فرصة لتنسى تمبى. كان بوسعه أن يأتى إلى المنزل فى أىٍّ من أيام الآحاد ببعض دمى الطين الصغيرة الطريفة للأطفال ، أو بريشٍ لامعٍ لطائرٍ وجده فى الدغل ؛ أو حتى بحزمة زهور برية مربوطة بأعواد الحشائش. رحبت به چين دائما ، وتحدثت معه وكافأته بهدايا صغيرة. ثم أنجبت طفلا آخر ، وأصبحت مشغولة جدا من جديد. أحيانا كانت تغدو أكثر انشغالا من أن تذهب بنفسها إلى الباب الخلفى ، فترسل خادمها بتفاحة أو بقليل من الحلوى.
بعد ذلك بوقت قصير ، ظهر تمبى فى المستوصف ، ذات صباح ، وإصبع قدمه مربوط. عندما نزعت چين قطعة القماش القذرة ، رأت قطعاً صغيرا جدا من نوع ليس خطيرا ، لا يعطيه طفل أو بالغ ، من السكان الأصليين ، فى العادة ، أى اهتمام على الإطلاق. لكنها ربطته له كما ينبغى ، وحتى ضمدته عن طيب خاطر عندما ظهر مرة أخرى بعد عدة أيام. ثم ، بعد أسبوع فقط ، كان يوجد قطع صغير فى إصبع يده. قالت چين نافدة الصبر: « أنظر يا تمبى ، أنا لا أدير هذا المستوصف لتوافه من هذا النوع ». عندما حملق فيها الصبى مشدوها ، تركزت عليها هاتان العينان الواسعتان الداكنتان بقوة جعلتها تتضايق ، أمرت الخادم أن يترجم له الملاحظة إلى اللهجة المحلية ، ذلك أنها ظنت أن تمبى لم يفهم. قال متلعثما: « يا سيدتى ، يا سيدتى ، أنا آتى فقط كى أراك » لكن چين ضحكت وصرفته. لم يذهب

بعيدا. فبعد أن رحل جميع المرضى الآخرين ، شاهدته يقف على مسافة قريبة ، ينظر إليها بأمل. سألته بشيء من الضيق: « ما الأمر ؟ » لأنه كان بوسعها أن تسمع الطفل الجديد يبكي داخل المنزل طالبا الرعاية.

قال تمبى: « أريد أن أعمل عندك ». « لكن يا تمبى لا أحتاج إلى صبى آخر. بالإضافة إلى ذلك ، أنت صغير جدا على العمل المنزلى ، ربما عندما تكبر ». « دعينى أعتنى بالأطفال ». لم تبتسم چين ، لأنه كان من المعتاد تماما استخدام أولاد سود صغار كمربين لأطفال لا يصغرونهم كثيرا. ربما كانت قد فكرت فى ذلك أيضا ، لكنها قالت: « تمبى ، لقد رتبت فعلا لمجيء دادة لتساعدنى. ربما فيما بعد. سأتذكرك ، وإذا احتجتُ إلى أحد كى يساعد الدادة ، سأرسل إليك. يجب أولا أن تتعلم أن تؤدى عملك بصورة جيدة. يجب أن تعمل بجد فى رعاية العجول و ألاّ تتركها تشرد ؛ حينئذ نعرف أنك ولد طيب ، وتستطيع أن تأتى إلى المنزل وتساعدنى فى تربية الأطفال ».

هذه المرة رحل تمبى بخطى متثاقلة ، وفى وقت لاحق ، بينما كانت چين تنظر من النافذة ، رأته واقفا عند حافة الدغل يحملق فى اتجاه المنزل. بعثت بالخادم ليصرفه بعيدا ، قائلة أنها لن تسمح له بأن يتسكع حول المنزل دون عمل.

كانت چين ، أيضا ، تحس فى تلك اللحظة بأنها "أفسدت" تمبى ، لدرجة أنه "أصبح أكبر من حجمه".

بعد ذلك لم يحدث شيء لفترة طويلة.

ثم فقدت چين خاتم زواجها الماسى. اعتادت أن تخلعه فى أحوال كثيرة عند القيام بالأعمال المنزلية ؛ حتى أنها لم تهتم فى البداية. بعد عدة أيام بحثت عنه بدقة ، لكن دون جدوى. بعد ذلك بقليل فُقِد بروش من اللؤلؤ. وكانت هناك عدة مفقودات صغيرة: ملعقة تستخدم فى إطعام المولود ، مقص ، إبريق التعميد الفضى. قالت چين لويلى منزعجة أنه لابد وأن هناك

عفريتا. « يكون الشيء في يدي ، وعندما أستدير يكون اختفى. شيء غير معقول حقا. الأشياء لا تختفي هكذا ». قال ويلي: « عفريت أسود ، ربما. ماذا عن الطباخ ؟ ». قالت چين أسرع مما ينبغي لحد ما: « لا تكن سخيفا ، كلا الخادمين معنا منذ قدومنا إلى المزرعة ». مع ذلك احتدم الشك داخلها. كانت هناك حكمة بالية مفادها أنه لا أحد من السكان الأصليين مهما كان ودودا ، يستحق الثقة به: اخدش أيا منهم ، تجد تحت إهابه لصاً. ثم نظرت إلى ويلي وأدركت أنه كان يشعر بنفس الشيء ، وأنه كان خجلا من شعوره مثلها. كان الخادمان صديقين شخصيين تقريبا. قالت چين بحزم: « هراء ، لا أصدق كلمة من هذا ». لكن لم يظهر أي حل للغز ، واستمر اختفاء الأشياء.

ذات يوم طلب والد تمبي أن يتحدث إلى الرئيس. حل قطعة قماش ووضعها على الأرض – وكان بها كل الأشياء المفقودة – احتجت چين: « لكن ليس تمبي ، بلا شك ». أوضح والد تمبي – محرجا مرتبكا – أنه تصادف مروره بزرائب الماشية ، وتصادف أن رأى الولد الصغير ، جالسا كعادته على كثيب بيت النمل في الظل ، يلعب بكنوزه. ناشدت چين: « بالطبع لم تكن لديه أية فكرة عن قيمتها. كان هذا فقط لأنها كانت تلمع وتبرق ». وفي الحقيقة عندما وقفوا هناك ، ينظرون إلى ضوء المصباح وهو يتلألأ على الفضة والماس ، كان من السهل أن يروا كيف يمكن أن يُسلب لُبّ طفل. سأل ويلي بحس عملي: « طيب وماذا سنفعل ؟ ». لمْ ترد چين على السؤال مباشرة ، صاحت يائسة: « هل تدرك أن الولد العفريت الصغير لابد أنه ظل يراقبني وأنا أعمل بالمنزل على مدى أسابيع ، وينسل بسرعة إلى الداخل كلما أدرت ظهري للحظة – لابد أنه في سرعة الثعبان ». « نعم لكن ماذا سنفعل؟ ». ردت چين: « فقط وبِّخْه التوبيخ المناسب » ، ولمْ تدرِ لمَ أحست بكل ذلك الفزع والضياع. كانت غاضبة ؛ ولكنها كانت مكروبة أكثر من ذلك بكثير – كان هناك شيء قبيح وعنيد في هذه السرقة المخططة المدروسة ، لمْ يكن بوسعها أن تطيق أن تعزوه إلى تمبي الصغير ، الذي سبق أن أنقذته من الموت.

قال ويلى: « التوبيخ لن يفيد في شيء ». وضُرِب تمبى علقة أخرى ؛ هذه المرة كما ينبغى ، بلا هراء حول جعل العصا تصفر للتخويف. جعله يكشف عن مؤخرته عارية منحنيا على ركبتى أبيه ، وعندما نهض ، قال ويلى راضيا: « لن يرتاح فى الجلوس لمدة أسبوع ». قالت چين: « لكن يا ويلى ، يوجد دم ». ذلك أنه عندما مشى تمبى مترنحا ، وساقاه مفرشحتان من الألم ، وقبضتاه مغروزتان فى عينيه اللتين كانتا تفيضان بالدموع ؛ ظهرت بقع حمراء على قماش بنطلونه. قال ويلى غاضبا: « ماذا تتوقعين منى أن أفعل – أن أعطيه هدية على عمله ، وأقول له: يا لمهارتك ؟ ».

« لكن الدم يا ويلى ! »

أقرّ ويلى: « لم أكن أعرف أننى أضرب بهذا العنف ». فحص العصا المرنة الطويلة في يديه ، قبل أن يلقى بها بعيدا ، كأنه فوجىء بتأثيرها. قال متشككا ، « لابد أن ذلك كان مؤذيا ، كان يستحقها والآن كُفّى عن البكاء يا چين ، لن يفعل ذلك مرة أخرى ».

لكن چين لم تكف عن البكاء. لم يكن بمقدورها أن تتحمل التفكير فى العلقة ؛ وويلى ، بصرف النظر عما قاله ، كان متضايقا عندما تذكّرها. كان سيسعدهما أن يتركا تمبى يغيب عن تفكيرهما لفترة ، ليظهر من جديد فيما بعد ، عندما يكون قد مرّ وقت ينمو فيه العطف داخلهما ثانية.

لكن لم يكد يمر أسبوع حتى طالب تمبى بأن يُستخدم لرعاية الأطفال: كان فى ذلك الوقت كبيرا بما فيه الكفاية ، كما قال ؛ كما أن چين سبق أن وعدت. اندهشت چين لدرجة أنها لم تستطع أن تتكلم معه. دخلت وأغلقت الباب فى وجهه ، وعندما علمت أنه مازال يتلكأ هناك ، للحديث معها؛ أرسلت الخادم ليقول أنها لن تستخدم لصا لرعاية أطفالها.

بعد ذلك بأسابيع قليلة سأل ثانية ، ورفضت من جديد. حينئذ لجأ إلى قطع الطريق عليها كل يوم ؛ وأحيانا عدة مرات فى اليوم: « سيدتى ، ياسيدتى دعينى أعمل بالقرب منك ، دعينى أعمل بالقرب منك ». دائما

رفضت ، ودائما ازداد غضبها أكثر.

أخيرا هزمها الإصرار ليس إلاّ. قالت: « لن آخذك لرعاية الأطفال ، لكن يمكنك أن تساعدني في حديقة الخضر ». تجهّم تمبي ، لكنه حضر إلى الحديقة في اليوم التالي ، لم تكن تلك التي بجوار المنزل ، بل كانت قطعة الأرض المسيّجة بجوار المساكن والمقامة لاستخدام السكان الأصليين ، وكانت چين قد استخدمت بستانيا ليديرها ، وحددت له مواعيد الزراعة ، وشرحت له كيفية استخدام الأسمدة العضوية ، والتعامل السليم مع التربة. وكان على تمبي أن يعاونه.

لم تكن تذهب كثيرا إلى الحديقة ؛ ذلك أنها كانت تدار بمن فيها. ذات مرة رأت ، أثناء مرورها ، أن الخضر تتلف في الأحواض دون أن تستخدم ، بما يعنى أن هناك دفعة جديدة من الأفارقة في المساكن ، وهم سكان أصليون كان ينبغي تعليمهم من جديد أن يتناولوا ما هو مفيد لهم. لكنها الآن وكانت قد أنجبت وليدها الأخير ، استخدمت دادتين لرعاية الأطفال ، ووجدت أن لديها وقتاً أكبر لتقضيه في المستوصف والحديقة. هنا رأت من الضروري أن تكون ودودة مع تمبي. لم تكن بالشخص الذي يحمل ضغينة لأحد ، إلاّ أن إحساسا بأنه ليس أهلا للثقة حال دون أن يعمل في رعاية الأطفال. كانت تتكلم معه عن أطفالها ، وأنهم يكبرون ، وسرعان ما سيذهبون إلى المدرسة في المدينة. وكانت تتكلم معه عن ضرورة أن يحافظ على نظافته وأن يتناول الأطعمة الملائمة ، ويجب عليه أن يكسب نقوداً أكثر حتى يستطيع شراء حذاء ليحمي قدميه من التراب المحمل بالجراثيم ، وكيف عليه أن يكون أمينا ، وأن يكون صادقا ومطيعا للبيض على الدوام. عندما تكون في الحديقة ، كان يتبعها ناسيا فأسه يتجرجر في يده ، مثبتا عينيه عليها. كان يكرر باستمرار: « نعم يا سيدتي ، نعم ياسيدتي ». وعندما تنصرف كان يتوسل: « متى ستعودين ؟ عودي قريبا ، ياسيدتي ». أخذت تأتي إليه بكتب أطفالها ، بعد أن تَبْلَى فلا تكون صالحة للاستعمال في الحضانة ، وكانت تقول له: « يجب أن تتعلم

القراءة ، ياتمبى ، حينئذ عندما تريد الحصول على وظيفة ، سوف تكسب أجرا أكبر ، إن استطعت أن تقول: « نعم ياسيدتى ، إننى أقرأ وأكتب ». تستطيع أن تستقبل رسائل على التليفون ، وأن تكتب الطلبات حتى لا تنساها ». كان يجيب وهو يأخذ الكتب منها بتبجيل: « نعم ، ياسيدتى ». عندما كانت تغادر الحديقة ، وتنظر إلى الوراء ، دائما بقليل من عدم الارتياح ، بسبب التفانى البالغ لتمبى : تراه يجثو على ركبتيه على التربة الغنية المائلة إلى الاحمرار ، المحاطة بالخضروات الزاهية الخضرة ، عاقدا حاجبيه فوق الصور الملونة الغريبة ، والأحرف المطبوعة غير المألوفة.

استمر هذا لمدة عامين تقريبا. قالت لويلى: « يبدو أن تمبى يستمرىء ذلك العمل المسلى الذى يقوم به ، الواقع أنه مفيد لتلك الحديقة. لا أضطر إلى أن أشرح له مواعيد زراعة النباتات. إنه يعرف ذلك مثلى تماما. وهو يطوف حول الأكواخ فى المساكن بالخضر ، ويحث السكان الأصليين على تناولها ». قال ويلى بضحكة خافتة: « أراهن أنه يجنب لنفسه بعض الربح ». « آه ، لا يا ويلى ، أنا متأكدة أنه لا يمكن أن يفعل ذلك ».

والواقع أنه لم يفعل ذلك. اعتبر تمبى نفسه مبشرا بأسلوب الرجُل الأبيض فى الحياة. كان يتكلم فى جدية ، وهو يعرض سلال الخضر المرصوصة بعناية على نساء السكان الأصليين: « تقول ذات القلب الطيب أنه من المفيد أن نتناول هذه الأنواع. تقول أن تناولها سيحمينا من المرض ». حقق تمبى أكثر مما حققت چين فى سنوات من الدعاية.

كان فى حوالى الحادية عشرة ، عندما بدأ فى إثارة المشاكل مرة اخرى. كانت چين قد أرسلت طفليها الكبيرين إلى المدرسة الداخلية ، واستغنت عن دادتيها ، وقررت استخدام غلام أسود ليساعد فى غسيل ملابس الأطفال. لم تفكر فى تمبى ؛ لكنها استخدمت أخاه الأصغر.

جاء تمبى إلى الباب الخلفى – وكما كان من قبل ، كانت عيناه تلمعان ، وكان جسمه ضئيلا ومشدودا – ليحتج: « سيدتى ، ياسيدتى ، وعدتِ

بأنني سأعمل عندك ». « لكنك ياتمبي تعمل الآن عندي ، في زراعة الخضر ».
« سيدتي ، ياسيدتي: أنت قلت أنك عندما تستخدمين غلاما أسود في المنزل ، سيكون ذلك الغلام هو أنا ». لكن چين لم تستسلم. كانت ما تزال تشعر وكأن تمبي تحت الاختبار. لم يبدُ لها ذلك الشيء قليل الصبر ، اللحوح ، كثير الطلبات في تمبي صفة ملائمة لأن يكون قريبا من أطفالها. بالإضافة إلى هذا كانت تحب أخاه الصغير: لأنه كان عبارة عن تمبي الأكثر رقة ، وبشاشة وسمنة ، وكان يلعب بطيبة قلب مع الأطفال في الحديقة بعد أن ينتهي من الغسيل والكواء. لم ترَ سببا يدعو إلى التغيير ، وقالت هذا.

عبس تمبي. لم يعد يأخذ سلال الخضر من باب إلى باب في المساكن وكان يقوم بأقل قدر من العمل يحتاج إليه دون أن يهمله في الواقع ، كانت الروح قد هجرته.

قالت چين وهي ساخطة من جهة ، ولاهية من جهة اخرى لويلي: « تَعْرِفْ ، أن تمبي يتصرف وكأن له حقا يطالبنا به ».

بعد ذلك بوقت قصير جدا جاء تمبي إلى ويلي وطلب أن يسمح له بشراء دراجة. كان يتقاضى في ذلك الحين عشرة شلنات شهريا ، وكانت القاعدة أن أيًا من السكان الأصليين لا يحق له أن يشتري دراجة إذا كان أجره يقل عن خمسة عشر شلنا ؛ يستطيع أن يحتفظ بخمسة شلنات ويعطي لويلي عشرة شلنات ، ويتعهد بالبقاء في المزرعة إلى أن يسدد الديْن. ربما استغرق هذا عامين ، أو حتى أكثر. رفض ويلي وقال: « لماذا يريد غلام أسود صغير مثلك دراجة ؟ الدراجة للرجال الكبار ».

في اليوم التالي ، اختفت دراجة ابنهم الأكبر من المنزل ، ووجدوها في المساكن مسنودة على كوخ تمبي. لم يزعج تمبي نفسه حتى بإخفاء السرقة ؛ وظل صامتا عند استدعائه لمقابلة ويلي. في النهاية قال: « لاأعرف لمَ سرقتها ... لا أعرف » وجرى ، باكيا نحو الأشجار.

أخيرا قال ويلي متحيرا وغاضبا: « يجب أن يرحل ».

اعترضت چين: « لكن أباه وأمه وأسرته يعيشون في مساكننا ».

قال ويلي: « لن أحتفظ بلص في المزرعة » . لكن التخلص من تمبي كان شيئا أكثر من طرد لص: كان ذلك إزاحة لمشكلة لم يكن آل ماك كلاستر جاهزين للتصدي لها. فجأة أدركت چين أنها حين لا تعود ترى عيني تمبي المتوهجتين المتوسلتين ، ستتعم بالراحة ؛ مع ذلك قالت شاعرة بالذنب: « أعتقد أنه يستطيع أن يجد عملا في إحدى المزارع القريبة ».

لم يدع تمبي نفسه يُطرد من الخدمة بمثل هذه السهولة. فعندما أخبره ويلي انفجر باكيا بدموع حارة ، مثل طفل صغير جدا . ثم جرى حول المنزل وأخذ يدق بقبضتيه بعنف على باب المطبخ إلى أن خرجت چين: « سيدتي ، ياسيدتي ، لا تدعي الريس يطردني ». «لكن ياتمبي لابد أن تذهب ، ما دام الريس قال هذا ». « أنا أعمل عندك ياسيدتي ، أنا خادمك ، دعيني أبقى ، سأعمل لديك في الحديقة ولن أطلب أي نقود زيادة ». قالت چين: « أنا آسفة ياتمبي ». حدق تمبي فيها ، بينما استحال وجهه إلى تعاسة غير مصدقة ؛ لم يكن ليصدق أنها لن تقف إلى جانبه. في هذه اللحظة خرج أخوه الأصغر من المنزل حاملا الطفل الأصغر لچين ، اندفع تمبي وألقى بنفسه عليهما ، حتى أن الطفل الأسود الصغير تراجع مترنحا ، وهو يتشبث بالطفل الأبيض بصعوبة. اندفعت چين لنجدة وليدها ، وجذبت تمبي بعيدا عن أخيه بعد أن عضه تمبي وخربشه في كل مكان في وجهه وذراعيه.

قالت في برود: « هذا ينهي الأمر ، ستترك هذه المزرعة خلال ساعة ، وإلا سيطاردك البوليس ».

فيما بعد ، سألوا والد تمبي عما إذا كان الغلام وجد عملا ؛ أجاب أنه يعمل بستانيا في حديقة في مزرعة مجاورة. عندما رأى آل ماك كلاستر هؤلاء الجيران سألوا عن تمبي ؛ لكن الأجابة كانت مبهمة: في هذه المزرعة الجديدة ، كان تمبي مجرد عامل آخر بلا تاريخ.

بعد فترة من ذلك ، قال والد تمبي أنه كانت هناك "مشكلة" وأن تمبي

انتقل إلى مزرعة أخرى على بعد أميال. ثم لم يعد يبدو أن أحدا كان يعرف أين هو ؛ قيل أنه التحق بمجموعة من العمال ذهبوا إلى الجنوب إلى جوهانسبرج للعمل فى المناجم.

نسى آل ماك كلاستر تمبى. وكانوا سعداء لأنهم استطاعوا أن ينسوه. كانوا يعتقدون أنهم أرباب عمل جيدون ؛ كانوا يتمتعون بسمعة طيبة بين عمالهم لعطفهم ومعاملتهم المنصفة ؛ إلاّ أن موضوع تمبى ترك فيهم أثرا مؤلما ولايمكن هضمه ، مثل حبة رمل فى لقمة من الطعام. كان اسم "تمبى" يستحضر معه انفعالات غير مريحة ، ولم يكن هناك سبب يوجب ذلك ، وفقا لآرائهم عن الصواب والخطأ. لذلك لم يتذكروا فى النهاية حتى أن يسألوا أباه عما حدث له: كان قد أصبح واحدا آخر من أولئك السكان الأصليين الذين يختفون من حياة المرء بعد أن كانوا يبدون وكأنهم جزء حميم منها.

كانت قد مرت على ذلك أربع سنوات تقريبا ، عندما بدأت السرقات مرة أخرى. حدث فى منزل آل ماك كلاستر أول حادث سطو. تسلل إليه شخص ما ذات ليلة ، وأخذ الأشياء التالية: معطف شتوى كبير يخص ويلى ، عصاه ، فستانان قديمان يخصان چين ، كمية من ملابس الأطفال ، عجلة قديمة ومهشمة. ولم تمس نقود كانت موضوعة فى أحد الأدراج. تعجب آل ماك كلاستر: « يا لها من مسروقات غريبة ». ففيما عدا معطف ويلى ، لم يكن هناك شىء ذو قيمة. تم إبلاغ البوليس بالسرقة ، وتمت زيارة روتينية إلى المساكن. تأكد أن اللص شخص يعرف المنزل ، لأن الكلاب لم تنبح عليه ، وأنه لم يكن لصا على قدر من الخبرة وإلاّ لسرق المال والجواهر بالتأكيد.

لهذا السبب ، لم يتم الربط بين السرقة الأولى والثانية ، التى حدثت فى منزل مزرعة مجاورة. هناك ، سُرِقت نقود وساعات وبندقية. وكانت هناك سرقات أخرى من نفس النوع فى المقاطعة. قطع البوليس بأنها لابد وأن تكون عصابة من اللصوص ، وليس السارق العادى ، لأن العمليات كانت فى منتهى المهارة ، وبدا وكأن عدة أشخاص خططوا لها. جرى تسميم كلاب

الحراسة ؛ واختيرت الأوقات التى كان فيها الخدم خارج المنزل ، وفى حادثتين: دخل شخص من بين قضبان مثبتة بجوار بعضها بحيث لم يكن ممكنا إلاّ لطفل أن يكون قد مرق بينها.

انتشرت الشائعات فى المقاطعة عن السرقات ؛ وبسببها أخذ الغضب الكامن في سكون بين البيض والسود ، والمستعد دائما للانفجار ، يتعمق على نحو قبيح. كان هناك بُغْضٌ فى أصوات البيض وهم يخاطبون خدمهم ، هذا الغضب الذى لا طائل تحته ، فحتى لو كان خدمهم هم يقدمون المعلومات إلى اللصوص ، فما الذى كان يمكن عمله للحيلولة دون ذلك ؟ كان يمكن للخادم المؤتمن إلى أقصى حد أن ينقلب إلى لص. خلال هذه الشهور – التى روّعت فيها العصابةُ المجهولة المقاطعة – حدثت أشياء محزنة ؛ كثيرا جدا ما عوقب أشخاص بالغرامة لأنهم جلدوا السكان الأصليين العاملين لديهم ، هرب عدد أكبر عما هو معتاد من العمال عبر الحدود إلى المستعمرات البرتغالية ، وكان الغضب الجياش الخطر مثل لهب يتأجج في الهواء. حتى چين وجدت نفسها ذات يوم تقول: « لماذا نفعل ذلك؟ انظر كيف أقضى وقتى فى تمريض وعلاج هؤلاء السكان الأصليين! فما الشكر الذى أناله ؟ إنهم لا يشعرون بالعرفان لأى شيء نفعله من أجلهم ». كانت مسألة العرفان فى ذهن كل شخص أبيض خلال تلك الفترة.

نظراً لاستمرار عمليات السرقة ، وضع ويلى قضباناً حديدية فى كل نوافذ المنزل ، واشترى كلبين ضخمين شرسين. أزعج هذا چين لأنه جعلها تشعر بأنها محاصرة وسجينة فى بيتها.

كانت تضيع متعة المنظر الجميل للجبال وظلال الدغل الأخضر ، عند النظر خلال قضبان من الحديد. باتت فى سخط متزايد بسبب تحية الكلاب المعادية لها وهى تزمجر ، فى طريقها من المنزل إلى المخازن ، وتعامل كل شخص – أسود كان أم أبيض – كأنه عدو. كانت تعقر كل شخص يقترب من المنزل ، وخافت چين على أطفالها. على أنه لم يمضِ سوى ثلاثة أسابيع على

شرائها حتى وجدوها راقدة ممدّدَة في الشمس ، ميتةً ، الزبد في أفواهها ، وعيونها تبرق مثل الزجاج. كانت مسمومة. قال ويلي بضيق: « يبدو أننا يمكن أن نتوقع زيارة اخرى » ؛ ذلك أنه كان في تلك اللحظة نافد الصبر بسبب الموضوع كله. وأضاف: « ومع ذلك ، إذا اختار الإنسان أن يعيش في بلد ملعون كهذا ، فعليه أن يتحمل التبعات ». كانت صيحة تعني ألاّ شيء يمكن أخذه بجدية من قِبَل أي إنسان. خلال تلك الفترة ، رغم هذا ، تحدث كثيرٌ جدا من الأشخاص المستقرين والقانعين بغضب مغيظ عن "البلد الملعون". باختصار كانوا في قمة التوتر.

بعد موت الكلاب مسمومة بفترة قصيرة ، كان من الضروري أن يسافر ويلي إلى المدينة على مسافة ثلاثين ميلا. لم ترغب چين في السفر ، كانت تكره النهار الطويل الحار اللاهث في الشوارع. لذلك سافر ويلي بمفرده.

في الصباح ، ذهبت چين إلى حديقة الخضر مع طفليها الأصغر. كانا يلعبان وحدهما حول برميل الماء ، بينما كانت چين تسند أعواد نباتات صف جديد من الأحواض ؛ كان عقلها خاليا خامدا ، وكانت يداها تعملان في سرعة ، باستخدام دوبارة وأوتاد خشبية. لكن استحوذت عليها فجأة ، رغبة غريبة جعلتها تستدير إلى الخلف بحدة ، وسمعت نفسها تقول: « تمبي! » تلفتت حولها باهتياج ؛ فيما بعد توهمت أنها سمعته ينطق باسمها. بدا لها أنها سترى طفلا أسود ، ذا وجه نحيل جاد ، يجثو خلفها بين أحواض الخضر مستغرقا في كتاب صور ممزق. كان الوقت ينساب ويدور معا ، وأحست بأنها مشوشة. فقط كان تركيز نظرها بإمعان على طفليها هو ما أعادها إلى إدراك كم مرّ من الوقت منذ أن كان تمبي يتبعها في هذه الحديقة.

بعد أن عادت إلى المنزل ، جلست تخيط في الفراندة. وما إن تركت مقعدها للحظة لإحضار كوب ماء ، حتى وجدت أن سلة الخياطة اختفت. لم تصدق في البداية. شكّت في حواسها ذاتها ، وفتشت المكان بحثا عن

سلتها ، التى كانت تعلم جيدا أنها كانت موجودة فى الفراندة قبل لحظات قليلة. كان هذا يعنى أن أحد السكان الأصليين يتسكع فى الدغل - ربما على مسافة مائتى ياردة - ويراقب حركاتها. لم تكن فكرة سارة ، وملأها قلق قديم ، وبرز فى تفكيرها اسم "تمبى" من جديد. ذهبت إلى المطبخ ، وقالت للطباخ: « هل سمعت شيئا عن تمبى مؤخرا ؟ ». لكن لم يكن هناك جديد ، على ما يبدو. كان فى "مناجم الذهب". ولم يتلقَ أبواه أية أخبار منه على مدى سنوات.

غمغمت چين فى شك: « لكن لماذا سلة خياطة ؟ لماذا القيام بمخاطرة كهذه من أجل شيء تافة كهذا ؟ هذا جنون ».

بعد ظهر ذلك اليوم ، عندما كان الطفلان يلعبان فى الحديقة ، وچين تنام فى فراشها ، تسلل شخص فى هدوء إلى حجرة النوم ، وأخذ قبعتها الكبيرة الخاصة بالحديقة ، ومريلتها ، والفستان الذى كانت ترتديه ذلك الصباح. عندما استيقظت چين ، واكتشفت هذا ، بدأت ترتعد ارتعادا من جهة بسبب الغضب ومن جهة بسبب الخوف. كانت وحيدة بالمنزل ، وغمرها الإحساس المزعج بأنها مراقبة. وبينما كانت تنتقل من غرفة إلى اخرى ، ظلت تلقى نظرات عجلى من فوق كتفها على زوايا الدولاب والشيفونيرة ، وظنت أن عينى تمبى الواسعتين المتوسلتين سوف تظهران هناك ، غير قابلتين للتهدئة تماما كعينى شخص ميت وهما تتعقبانها.

وجدت نفسها تراقب الطريق انتظارا لعودة ويلى. لو كان ويلى هنا لألقت عليه المسئولية وأحست بالأمان: كانت چين امرأة تعتمد كثيرا على ذلك الدعم غير الملحوظ الذى يقدمه الزوج. لم تكن تدرك قبل هذا الأصيل كم كان اعتمادها عليه ، وهذا الإدراك - الذى يبدو أن اللص يشاركها فيه - جعلها تعيسة وقلقة. أحست أنها يجب أن تكون قادرة على التصرف فى هذا الأمر بنفسها بدلاً من انتظار زوجها مغلوبة على أمرها. ظلت تكرر: « يجب أن أفعل شيئا ، يجب أن أفعل شيئا ».

كان أصيلا مشمسا دافئا طويلا. كانت چين تنتظر ويلى فى الفراندة بكل أعصابها مشدودة ، حاجبة الشمس عن عينيها وهى تحدق عبر الطريق لترى سيارة ويلى. كان الانتظار يفترسها. لم تستطع أن تمنع عينيها من العودة إلى التحديق – مرارا – إلى الدغل القائم أمام المنزل مباشرة ، والذى امتد ميلا بعد ميل ، مرجاً تكسوه الشجيرات القصيرة الداكنة الخضرة ، وازداد دكنة بسبب الظلال الطويلة للمساء الوشيك. أوقفها على قدميها دافع مفاجىء كان يسرى فى كل كيانها ، وسارت فى اتجاه الدغل عبر الحديقة. وقفت عند طرف الدغل تنعم النظر فى كل اتجاه بحثا عن تلك العينين الداكنتين اللحوحتين ، ونادت: « تمبى ، تمبى ». لكن لا صوت ، توسلت: « لن أعاقبك ياتمبى ، تعال هنا إلىّ ». وترقبت مرهفة السمع ، لأدنى حركة غصن ، أو قلقلة حصاة. لكن الدغل كان صامتا تحت الشمس ؛ حتى الطيور خدّرها الدفء ، وتدلت أوراق الشجر دون اهتزاز. نادت ثانية: « تمبى » فى البداية قالتها بلهجة آمرة ، ثم بصوت متهدج. كانت تدرك تماما أنه هناك ملتصقا خلف شجرة ما أو شجيرة ، منتظرا منها أن تنطق بالكلمة الصحيحة ، أن تجد الأشياء التى ينبغى قولها ، حتى يمكنه أن يثق بها. جن جنونها عندما فكّرت فى أنه قريب منها جدا ، وأنه لم يعد يمكنها أن تصل إليه إلاّ بقدر ما يمكنها أن تمسك بطيف. خفضت صوتها لتستميله وقالت: « تمبى أعرف أنك هناك. تعال هنا وتحدث معى. لن أبلغ البوليس. ألا تثق بى ياتمبى ؟ ».

لا صوت ، ولا همسة تجيب. حاولت أن تجعل ذهنها رائقا وخاليا حتى تنبثق الكلمات التى تحتاج إليها هناك جاهزة للاستعمال. بدأت الحشائش تهتز قليلا مع نسيم المساء ، وارتجفت أوراق الشجر المتدلية مرة أو مرتين ، أصبح الضوء دافئا رقيقا ، الأمر الذى كان يعنى أن الشمس على وشك المغيب ، وبدا وهج أحمر على أوراق النبات ، وتوهجت السماء بضوء باهر. كانت چين ترتعد إلى حد أنها فقدت السيطرة على أطرافها ؛ كان ارتعادا

داخليا عميقا ، يتفجر من الداخل ، مثل جرح خفي ينزف. حاولت أن تهدىء نفسها . قالت: هذا سخيف. لا يمكن أن أكون خائفة من تمبي الصغير ! كيف يمكن ذلك ؟ جعلت صوتها حازما وعاليا وقالت: « تمبي: أنت تغدو شديد الحماقة. ما فائدة أن تسرق أشياء مثل طفل غبي؟ يمكنك أن تكون ماهرا في السرقة لفترة قصيرة ، لكن البوليس سيقبض عليك عاجلا أو آجلا ، وستذهب إلى السجن. أنت لا تريد ذلك ، هل تريده ؟ استمع إليّ الآن. أخرج الآن ودعني أراك ، وعندما يأتي الريس: سأشرح له ؛ وسأقول أنك نادم ، وتستطيع أن تعود وتعمل عندي في حديقة الخضر. لا أحب أن أفكر فيك على أنك لص يا تمبي. اللصوص أناس أشرار ». توقفت. ران الصمت عليها ؛ أحست بالصمت وكأنه برودة ، كما يحدث عندما تمر سحابة فوق الرءوس — لاحظت أن الظلال تكاثفت هنا وهناك وأن الضوء يتراجع من فوق أوراق الشجر حتى اكتسبت مظهرا رماديا يوحي بالبرودة. أدركت أن تمبي لن يخرج لها في تلك اللحظة ، كانت لم تجد الأشياء التي ينبغي قولها. أعلنت للدغل الصامت المصغي: « أنت ولد صغير أحمق، أنت تغضبني جدا يا تمبي ». ومشت في بطء شديد عائدة إلى المنزل محتفظة بهدوئها ووقارها ، مدركة أن تمبي يراقبها بخطة ما في ذهنه لم تتمكن من تخمينها.

عندما عاد ويلي من المدينة — متعبا ومستَفَزاً كحاله دائما عقب يوم من الاتجار ولقاء الناس والتسوُّق — أخبرته بحرص ، منتقية ألفاظها ، بما حدث. عندما قالت كيف أنها نادت على تمبي من طرف الدغل ، نظر ويلي إليها برقة وقال: « ياعزيزتي ما الفائدة التي تعتقدين أنها ستأتي من هذا؟ ». « لكن ياويلي الموضوع برمته فظيع ...». بدأت شفتاها ترتعشان بشدة ، وتركت نفسها تبكي على سجيتها على كتفه. قال ويلي: « أنت لا تعرفين أنه تمبي ». « بالطبع هو تمبي ، من يمكن أن يكون غيره ؟ الولد الصغير الأحمق. صغيري الأحمق تمبي ...».

لم تستطع تناول الطعام. بعد العشاء قالت فجأة: « سيأتي إلى هنا

الليلة – أنا متأكدة من هذا ». قال ويلى بجدية: « هل تعتقدين أنه سيأتى » ، ذلك أنه كان يكنُّ تقديرا عظيما لحدْس چين: « جميل ، لا تقلقى ، سنكون مستعدين له ». قالت چين: « لو تركنى فقط أتحدث إليه ». قال ويلى: « تتحدثين إليه! ، لن يحدث هذا أبدا ، سأضعه فى السجن. ذلك هو المكان الوحيد الذى يناسبه ». اعترضت چين: « لكن يا ويلى ...» وهى تعلم تماما أن تمبى يجب أن يذهب إلى السجن.

لم تكن الساعة قد بلغت الثامنة. « سأضع بندقيتى بجوار الفراش » ، خطط ويلى: « لقد سرق بندقية ؛ أليس كذلك ، من المزرعة التى على الجانب الآخر من النهر ؟. يمكن أن يكون خَطِراً ». اتقدت عينا ويلى الزرقاوان ، أخذ يذرع الغرفة جيئة وذهابا ، ويداه فى جيبيه ، يقظاً ومستثاراً: بدا أنه مستمتع بفكرة القبض على تمبى ، ولهذا شعرت چين أنها باردة تجاهه. كانت هذه هى اللحظة التى سمعا فيها صوتا من حجرة النوم المجاورة. هبَّا واقفيْن ووصلا إلى المدخل سويا. هناك كان يقف تمبى مواجها إياهما ؛ ويداه تتدليان خاليتين إلى جانبيه. كان قد ازداد طولا ، لكنه كان لا يزال نفس الطفل النحيل الرشيق ذى الوجه الرفيع والعينين الواسعتين المعبِّرتين. عند مرأى هاتين العينين قالت چين فى وهن: « ويلى ...».

رغم ذلك ، اتجه ويلى إلى تمبى مباشرة ، وأمسك بذلك المجرم المستسلم من ذراعه. « أيها النذل الصغير » قال فى غضب ، لكن بصوت لا يناسب لصا خطيرا سرق منازل عديدة ، بل يناسب بالأحرى طفلا شقيا ضُبط وهو يسرق فاكهة. لم يرد تمبى على ويلى: كانت عيناه مثبتتين على چين. كان يرتعش ؛ وبدا أنه ليس أكثر من طفل.

سألته چين: « لماذا لم تأتِ عندما ناديت عليك ؟ » ، « أنت أحمق جدا يا تمبى ».

« كنت خائفا ، ياسيدتى » قال تمبى ، بصوت لا يكاد يعلو على الهمس. قالت چين: « لكننى قلت أننى لن أُبلِّغ البوليس ».

صاح ويلى آمرا: « اسكتى ، ياچين. بالطبع سنستدعى البوليس. فيم تفكرين ؟ ». وكأنما كان بحاجة إلى تذكير نفسه بهذه الحقيقة الهامة ، قال: « رغم كل شىء ، الغلام مجرم ».

همس تمبى متوسلا إلى چين : « لست ولدا سيئا ، يا سيدتى ، يا سيدتى ، أنا لست ولدا سيئا ».

لكن الأمر كان قد خرج من يد چين ، كانت قد تركته لويلى.

بدا ويلى حائرا فيما سيفعل. أخيرا مشى عاقد العزم بخطى واسعة نحو خزانة الثياب ، وأخذ بندقية منها ، وسلّمها إلى چين آمرا: « أبقى هنا ، سأستدعى البوليس بالتليفون ». خرج ، تاركا الباب مفتوحا ، بينما وقفت چين هناك تمسك البندقية الكبيرة وتنتظر صوت التليفون.

نظرت فى يأس إلى البندقية ، وسندتها على السرير ، وقالت فى همس: « تمبى ، لماذا سرقت ؟ ».

نكس تمبى رأسه وقال: « لا أعرف يا سيدتى ». « لكن يجب أن تعرف ». لم يكن ثمة رد. انهمرت الدموع على خدىْ تمبى.

« تمبى هل أحببت جوهانسبرج ؟ ». لم يرد. « كم بقيت هناك ؟ ». « ثلاث سنوات ياسيدتى ». « لماذا رجعت ؟ ». « أودعونى السجن ياسيدتى ». « لماذا ؟ ». « لم يكن لدى تأشيرة مرور ». « هل هربتَ من السجن ؟ ». « لا ، أمضيت فيه شهرا ، ثم أخرجونى ». « هل أنت الذى سرقت كل الأشياء من المنازل التى حولنا هنا ؟ ». أومأ تمبى برأسه موافقا ، وخفض عينيه إلى الأرض.

لم تعرف چين كيف تتصرف. كررت لنفسها بحزم: « هذا ولد خطر ، عديم الضمير وشديد المهارة » والتقطت البندقية من جديد: لكن وزن البندقية وشكلها العدائى البارد جعلها تشعر بالأسى. وضعتها بحدة. همست: « انظر إلىّ يا تمبى ». فى الخارج ، فى الممر ، كان ويلى يقول بصوت واثق حازم: « نعم يا سيرچنت ، أمسكنا به هنا ، كان يعمل عندنا ، منذ سنوات مضت.

نعم ».

همست چين بسرعة: « انظر ، يا تمبي: سأخرج من الحجرة. يجب أن تهرب بسرعة. كيف دخلت ؟ ». خطرت لها هذه الفكرة للمرة الأولى. نظر تمبي إلى الشباك. استطاعت چين أن ترى أن القضبان أزيحت بعيدا عن بعضها ، حتى يمكن لشخص شديد النحافة أن ينحشر بينها بالجنب. قالت: « يجب أن تكون قويا ، لا حاجة الآن إلى الخروج بتلك الطريقة. فقط ، اخرج من ذلك الباب » ، أشارت إلى الباب المؤدى إلى حجرة المعيشة: « واخرج منها إلى الفراندة ، ثم اجر إلى الدغل. إذهب إلى مقاطعة اخرى واحصل لنفسك على عمل شريف ، كُفَّ عن أن تكون لصا . سأتحدث إلى الريس. سأطلب منه أن يقول للبوليس أننا وقعنا في خطأ. هيا يا تمبي...» أنهت كلامها بإلحاح ، وخرجت إلى الممر حيث كان ويلى أمام التليفون ، وظهره لها .

رفع رأسه ، ونظر إليها غير مصدق ، وقال: « چين أنت مجنونة ». قال في التليفون: « نعم ، تعال بسرعة ». وضع السماعة واستدار إلى چين وقال: « تعرفين أنه سيفعل ذلك مرة اخرى ، أليس كذلك ؟ » وجرى عائدا إلى حجرة النوم.

لكن لم تكن هناك حاجة إلى الجرى. كان تمبي يقف هناك في نفس المكان الذى تركاه فيه ، قبضتاه في عينيه ، مثل طفل صغير.

قالت چين في غضب: « قلت لك اهرب ».

قال ويلى: « إنه مجنون ».

عندئذ ، تماما كما فعلت چين من قبل ، إلتقط ويلى البندقية ، وبدا أنه أحس أنه أحمق وهو يمسك بها ، فوضعها مرة اخرى.

جلس ويلى على الفراش ونظر إلى تمبي نظرة شخص جرى خداعه. وقال: « حسنا ، عليّ اللعنة ، لقد نال مني هذا الشيء ».

استمر تمبي واقفا هناك وسط الحجرة منكسا رأسه ، وباكيا ، كانت چين تبكى أيضا . وكان ويلى يزداد غضبا ، واهتاجت أعصابه أكثر وأكثر.

أخيرا ترك الحجرة ، صافقا الباب ، وقال: « لعنة الله على كل هذا ، الكل مجنون ».

سرعان ما أتى البوليس ، ولم يعد هناك شك فيما يجب عمله. أومأ تمبى برأسه موافقا لدى كل سؤال: اعترف بكل شيء، وضعوا القيد فى يديه ، وأخذوه فى سيارة البوليس.

أخيرا عاد ويلى إلى حجرة النوم ، حيث كانت چين ترقد باكية على الفراش. ربت على كتفها وقال: « الآن كُفِّى عن هذا ، انتهى الأمر. لا نستطيع أن نفعل شيئا ».

كانت چين تنشج: « لقد عاش فقط بسببى. هذا ما يجعل الأمر فظيعا للغاية. وهو الآن فى طريقه إلى السجن ».

« هـم لا يأبهون بالسجن. إنه ليس عارا فى نظرهم كما هو فى نظرنـا ».

« لكنه سيكون أحد أولئك السكان الأصليين الذين يقضون كل حياتهم داخلين السجن أو خارجين منه ».

« طيب ، وماذا فى هذا ؟ » ، قال ويلى. ثم ، بالسخط الرقيق المنضبط لزوج ، رفع چين وقدم إليها منديله. « والآن كُفِّى عن هذا ، يافتاتى العجوز » كان يحاول إقناعها بالمنطق: « كُفِّى عن هذا ، أنا متعب. أريد أن أذهب إلى الفراش. أنهكنى صعود وهبوط تلك الأرصفة الملعونة طوال اليوم. وأمامى غدا يوم شاق فى زراعة الدخان ». وبدأ يخلع حذائيه الطويلين.

كَفَّت چين عن البكاء ، وخلعت هى الاخرى ملابسها: « هناك شيء فظيع فى كل هذا » قالت فى قلق. « لا أستطيع أن أنسى هذا ». أخيرا قالت: « ماذا كان يريد ، يا ويلى ؟ ما الذى كان يريد ، كل هذا الوقت ؟ ».

شتـــاء فـى يوليـــو

كان ثلاثتهم يجلسون لتناول وجبة المساء فى الفراندة. من الخلف ، ألقت حجرة المعيشة بضوئها نحو المائدة ، حيث بدت أيديهم المتحركة ، وأدوات المائدة ، والطعام ، معتمة قليلا ، لكن واضحة بما يكفى للاستعمال بسهولة. كانت چوليا تميل إلى الإضاءة الخافتة. كان يمكن لمصباح أو بعض الشموع أن تضعهم داخل بقعة ذات إضاءة تريح النظر ، لكنها كانت تمحو أثر السماء ، التى كانت تميل عليهم فى تلك اللحظة من خلال أعمدة الفراندة ، سماء قاتمة تماما ، تحتجز وهجا باهتا من قمر محتجب أحال النجوم إلى تألق شاحب بعيد.

كان توم يقول أحيانا ، وهو يدمدم هازلا: « رومانسية ، هكذا هى فى الحقيقة » ؛ وكان كينيث يجيب ، لكن بضحكة فظة أقرب للاستنكار: « أحب أن أرى ما آكله ». كان كينيث شخصاً فظاً بكل معنى الكلمة. كانت تلك الضحكة السريعة ، التى كان يكبحها بسرعة ، والنظرة المستنكرة الخاطفة التى يلقيها عليها (والتى كانت تقابلها بعينيها ، المستنكرتين كعينيه) جزءا من الحوار الطويل بينهما. ذلك أن كينيث لم يكن يتحملها. كان يقاومها. أما توم فكان يتحملها كما كان يتحمل كل شيء. بالنسبة لچوليا ، لم تكن المسألة مسألة تفضيل: كان الرجلان يدعمانها بأسلوبيهما المختلفين. أما الأشياء التى كان

يقولها ، ثلاثتهم ، فنادرا ما كانت تبدو ذات أهمية. كان الشيء الحقيقى هو ذلك التوتر الناعم المرن الذى ربط بينهم بصلة حميمة.

كان حبها لساعة الغروب ، قبل الانتقال إلى الحجرة ذات الإضاءة الساطعة داخل البيت ، تعبيرا عن إحساسها بهما. كانت الأضواء المتداخلة ، من ناحية بسبب سماء الليل ، ومن ناحية اخرى بسبب المصباح ، ترقق وجهيهما وتلطِّف من صوتيهما ، وكان بوسعها أن تحس فى استرخاء بحالهما دون أن تزعج نفسها بالإصغاء إليهما. كانت هذه الحالة استمرارا ليومها ، الذى كانت تقضيه بمفردها (لأن الرجلْين كانا أغلب الوقت فى الحقول) فى حالة أدنى للنشوة حيث لا يتميز الانسياب الناعم لمرور الوقت بأية ضرورات عمل قوية بما يكفى لإيقاظها منها. فيما يتعلق بهما ، كانت تدرك أن العودة اليها كانت دخولا فى تلك الحالة. كان يومهما شاقا وحافلا بالنشاط ، مليئا بالتفاصيل العملية والمشاريع. وعند غروب الشمس كانا يدخلان عالمها ، وكانت وجبة المساء ، حيث كانت تتوه حدود الواقع بسلبيتها التى لم تكن أقل من خداع التمويه الذى يخلقه الجلوس تحت سقف يبعث شبه ظل إلى الليل الأفريقى ، هى المدخل إلى ذلك العالم.

اعتادا أن يقولا لها أحيانا: « ماذا تفعلين بنفسك طوال اليوم ؟ ألا تشعرين بملل ؟ » لم تكن تستطيع أن تشرح كيف أنه لم يكن من الممكن أبدا أن يصيبها الملل. فقد مات القلق داخلها. كانت قانعة بألاَّ تفعل شيئا لعدة ساعات دفعة واحدة؛ لكن ذلك كان رهنا بشعورها بأنها مشدودة برفق إلى التوتر بين الرجلين. كان توم يحب أن يفكر فيها راضية ومطمئنة فى كنفه؛ أما كينيث فكان ساخطا.

هذا المساء بالذات ، أثناء تناول الطعام ، نهض كينيث فجأة وقال: « يجب أن أحضر معطفى ». أصاب الفزع جوليا بقشعريرة عندما أدركت أنها ، هى الأخرى ، تحس بالبرودة. كانت تحس بالبرودة منذ عدة ليالٍ ، لكنها أرجأت ساعة الإقرار بالحقيقة. تأكدت خواطرها بملاحظة توم:

« أصبح الجوّ الآن أبرد من أن نأكل فى الخارج ، يا چوليا ».

« أى شهر هذا ؟ »

ضحك فى تسامح، « نحن نقوم بالحصاد ».

عاد كينيث ، وهو يحشر نفسه بسرعة فى المعطف. كان رجلا ضئيل الجسم ، سريع الحركة ، مفعما بالحيوية ، وكان أسمر ، داكن العينين ، قليل الصبر ، وكان يفعل كل شىء وكأنه مستاء من الوقت الذى كان عليه أن يقضيه فى فعله. أما توم فكان ضخما ، وسيما ، أنيقا ، كان نقيض كينيث فى كل شىء. قال لچوليا بإصرار رقيق ، مدركا أنها بحاجة إلى تشجيع: « من الأفضل أن تطلبى من الخدم أن ينقلوا المائدة إلى الداخل غداً ».

دمدمت: « أعتقد ذلك ». لقد انتهى صيفها: كانت الليالى الطويلة المضيئة الدافئة ، التى قطعتها الأمطار الغزيرة المفاجئة ، أو وارتها السحب الثقيلة العابرة – الليالى الزاخرة بالسحر – قد ولّت وانتهت فيما يتعلق بهذا العام. الآن ، طوال أشهر الشتاء الثلاثة ، سيأكلون فى الداخل ، واللمبة الساخنة تعلو المائدة ، وسيقانهم ترتجف من البرد ، وفى الخارج بلدة ظامئة تظللها نجوم باهتة متجمدة.

قال كينيث بحيوية: « الشتاء ، يا چوليا ، سيتعين عليك أن تواجهيه ».

ابتسمت: « عظيم ، غدا ستكون قادرا على أن ترى ما تأكل ».

كانت هناك لحظة صمت قصيرة ؛ ثم قال كينيث: « لن أكون هنا ليلة غد. سأستقل السيارة إلى المدينة فى الصباح ».

لم ترد چوليا. لم تكن قد سمعت. بعبارة أخرى ، أحست بالفزع يزداد عمقا داخلها وهى تسمع صوته ؛ ثم تعجبت من هواجسها هى ، ثم خطرت لها هذه الكلمات: « المدينة. فى الصباح ».

كان من النادر للغاية أن يذهبوا إلى المدينة ، التى كانت تقع على بعد خمسين ميلا. كانوا يخططون دائما لكل رحلة مقدما ، ذلك أنها كانت تخصص لشراء الأشياء التى لم تكن متاحة فى المتجر المحلى. قام ثلاثتهم

بهذه الرحلة في الأسبوع الماضي فقط. كان عقل چوليا يجابه ويستوعب في تلك اللحظة واقعة أن كينيث استأذن في ذلك اليوم على نحو مفاجيء وانصرف لأمر من أموره. تذكرت أنها أغاظته ، قليلا ، بطريقتها الخاصة. لابد أنها قالت لنفسها (كارهة إدراكها هذا) أنها سيطرت على غيرتها ، مثل كثير من النساء الغيورات ، بالتحول إلى شريك ، إن جاز القول ، في مغامرات كينيث : هدأ فضولها المعذب عندما علمت ماذا كان يفعل. وفي الأسبوع الماضي كان قد كره إغاظتها له.

في تلك اللحظة تطلعت إلى توم لطمأنة نفسها ، وأدركت أن عينيه تعبران عن قلق شديد كقلقها. مخذولة خذلانا مضاعفا ، حملقت بحدة وإمعان في كلا الرجلين ؛ ولأن تصريح كينيث المباشر عن نواياه بدا لها خيانة سافرة لروابطهما الحقيقية ، فضلت ألا تقول شيئا ، لكن بطريقة من ينتظر إيضاحاً. لم يُقدِّم أى إيضاح ، وإن بدا كينيث مضطربا. انتهوا من وجبتهم في صمت ودخلوا ، مارّين عبر حجرة الطعام العارية ، والتي ستظهر غدا في زيها الشتوى من أثاث مرتب وشموع وأواني فاكهة ، إلى حجرة المعيشة.

كان البيت مبنيا بحيث يتحمل الطقس الحار. في الشتاء كانت البرودة تنتشر من الأرضية ومن الجدران. كانت هذه الحجرة عارية تماما ، مرتفعة جدا ، مبنية من قرميد أحمر منطفيء ، مبلّطة بالحجر. وغدا ستفرشها بالسجاجيد. كانت هناك مدفأة كبيرة من الحجر ، استقرت عليها جرة من الخزف مملوءة بأغصان السدر. بلا وعى ، عبرت چوليا المسافة إليها ، وركعت ، وانحنت للزهور الحمراء المتوهجة الصغيرة ، وهى تمد يديها وكأنها تستكين إلى النار. عندما أدركت ما كانت تفعل ، رفعت رأسها ، وابتسمت ساخرة للرجلين ، اللذين كانا يراقبانها بنفس الابتسامة الصغيرة ، وقالت: « سآمر بإشعال النار ». نفضت نفسها لتعى ما تفعله ، وسارت قاصدة البـاب ، ونادت على الخدم. وسـرعان ما دخل الخادم بقطع خشب ولوازم لإشعال النار ، ووقف ثلاثتهم يشربون قهوتهم ، وهم يراقبونه فيما كان جاثيا

لإشعال النار. كانوا صامتين ، ليس تورُّعاً عن ترك حياتهم يظهر زيفها أمام الخدم ، بل لأنهم أدركوا أن الحديث كان ضروريا ، وأن ما ينبغى أن يقال يمكن أن يحطم حياتهم معا. كانت چوليا ترتجف ، بدا وكأن دعامة انتزعت من تحتها. كانت مقيدة بهذين الرجُلين ، وصُنِعت حياتها بهما ، عاشت معهما على سليقتها دون مواراة ، وكانا يقدمان أنفسهما لها دون استهجان أو استحسان. في تلك اللحظة وجدت نفسها ترمقهما بنظرات سريعة مترددة بين توم ، ذلك الرجل الضخم الرقيق ، زوجها ، حيث كان مجرد وجوده يمنحها الأمان ، وكينيث ، الذى انكفأ عابسا على فنجان قهوته ، حتى لا يلتقى بعينيها. ليته ضحك ببساطة وقال ما كان مطلوبا ! – لم يفعل – شرب ما تبقى فى الفنجان فى رشفتين كبيرتين ، وبدا أنه يشعر بالحاجة إلى شىء يفعله ، ثم اتجه إلى المدفأة. كان الخادم الأسود ما يزال جاثيا هناك ، ساقاه العاريتان ممدودتان خلفه فى استرخاء ، ويداه تتدليان مسترخيتين ، وبدنه طليق ومسترخ باستثناء رأسه وكتفيه ، حيث تركزت كل طاقته فى النفخ فى النار ، وهو ما كان يفعله بنَفَس متواصل ، أشبه بالخوار. قال كينيث: « كفى ، سأقوم أنا بذلك ». ألقى عليه الخادم نظرة خاطفة ، متقبلا نزوة الرجُل الأبيض ، وغادر الحجرة صامتا ، تاركا خلفه شعورا بأنه قال: « لا يستطيع البيض إشعال النار » ؛ تماما كما كان لچوليا أن تشعر بطباخها يقول ، وهى تلقى الأوامر فى المطبخ: « يمكننى أن أصنع الفطائر أفضل منك ».

جثا كينيث حيث كان الخادم يجثو وأخذ يحرك قطع الخشب بأصابعه. لكنه كان يجيد العمل بيديه ، بعد لحظة تناثرت بدايات الشرر الضئيل على الحائط ؛ فيما كانت جرة أزهار الزعرور الشائكة ، نار صيف چوليا ، موضوعة جانبا.

قال كينيث ، بفظاظة إلى حد ما ، وبصوت مرتفع أكثر من اللازم إلى حد ما: « الآن ، يمكنك أن تدفئى يديك ، يا چوليا ». وأطلق ضحكته المتذمرة

السريعة. وجدتها چوليا عدوانية ؛ وواجهت عينيه. كانتا معاديتين. احمرّ وجهها ، واتجهت ببطء إلى المدفأة ، وجلست. حذا الرجلان حذوها. لفترة قصيرة لم يفعلوا شيئا ؛ ظل ذلك التفسير غير المقدَّم معلقا في الهواء بينهم. بعد قليل التقط كينيث مجلة وبدأ يقرأ. تطلعت چوليا إلى زوجها ، الذى كانت عيناه الزرقاوان الحنونتان تتحملان دائما كل شيء كانته ، ورفعت حاجبيها مداعبة. لم يستجب ، ذلك أنه كان قد استدار من جديد إلى رأس كينيث الذى كان محنيا عن عمد في تلك اللحظة.

واقع أن كينيث لم يتكلم ، وأن توم كان مضطربا ، جعل چوليا ، وقد انطوت على نفسها ، تتساءل: « لماذا تستائين هكذا ؟ لاشك في أن له الحق في أن يفعل ما يشاء ؟ » لا ، ردت على نفسها. ليس بهذه الطريقة. لا ينبغي أن ينسحب فجأة ، مزيحا إيانا بعيدا. إما هذا وإما ذاك. أن يفعل ذلك بهذه الطريقة يعني أن كل سنواتنا معا كانت كذبة ؛ هو ببساطة يتبرأ منها. لكن هكذا كان كينيث ، هذا التناوب المستمر بين العطاء والاسترداد. أحست چوليا أن الدموع تتدفق في داخلها من مكان ظل جافا لزمن طويل. كانت دموع عدم الأمان الذى يبعث على القشعريرة. كان الهواء الخفيف البارد في الحجرة الحجرية الكبيرة ، التى بدأت النار القليلة تشيع فيها الدفء منذ قليل ، مليئا بنذر الخطر لچوليا. لكن كينيث لم يتكلم: كان يقرأ وكأن مستقبله يتوقف على الإعلانات عن الجرارات ؛ وسرعان ما بدأ توم يقرأ هو الآخر ، متجاهلا چوليا.

استجمعت نفسها ، واسترخت في مقعدها ، وحملت نفسها على التفكير. كانت تفكر بإمعان في حياتها وفيما كانته. لم تحس لزمن طويل جدا بحاجة إلى أن تتأمل نفسها ، وكرهت اضطرارها إلى أن تفعل ذلك.

كانت ابنة طبيب مدينة صغيرة شمالي إنجلترا. لو قلنا أنها كانت طموحة في ذلك الحين لكان قولا مضللا: كلمة الطموح تدل على وجود هدف ؛ كانت بالأحرى ميالة إلى التدقيق ومحبة للاستطلاع ، ولم يكن تمردها على

جو المدينة الصغيرة وعلى إمكانية الزواج فيها أكثر وعيا من تمرد أغلب الشباب الذين يفكرون تفكيرا مبهما: لا شك فى أن الحياة يمكن أن تكون أفضل من هذا ؟

مع ذلك هربت. كانت ذكية: عند انتهاء دراستها كانت أفضل تعليما من أغلب أترابها. تعلمت الفرنسية والألمانية لأن تعلّم اللغات كان سهلا عليها ، وفى المقام الأول لأنها وهى فى الثامنة عشرة أحبت طالبا فرنسيا ، وفى العشرين أصبحت سكرتيرة لرجل كانت له علاقات عمل فى ألمانيا ، وكانت تحب إرضاء الرجال. كانت سكرتيرة ممتازة ، ليس فقط بسبب كفاءتها ، بل كذلك بسبب تجانسها السلس المتميز مع الرجال الذين عملت معهم. كان مستخدموها يجدون أنها تتكيف بسرعة وبداهة مع ما يريدون : كان نوعاً من الاستسلام الموجه ، والتعاطف والانسجام إزاء الناس. لهذا كسبت جيدا ، وسرعان ما واتتها الفرصة لمغادرة بلدتها والسفر إلى لندن.

عندما عادت فى تلك اللحظة بفكرها من العمر الذى بلغته (والذى كان أربعين تقريبا) إلى الحياة التى عاشتها (والتى كانت متنوعة وحافلة بوضوح بالمغامرات) لم تستطع أن تحدد مرحلة فى شبابها قالت فيها لنفسها: « أريد أن أسافر ؛ أريد أن أكون حرة ». على أنها سافرت بعيدا ، منتقلة من بلد إلى التالى ، ومن عمل إلى التالى ؛ وكانت كافة علاقاتها مع الناس ، رجالا كانوا أم نساءً ، تصطبغ بصبغة متألقة بسبب عدم الدوام. عندما غادرت انجلترا لم تكن تعرف أنها ستكون بلا عودة. كانت فى رحلة عمل مع مستخدمها ، وكانت علاقاتها معه تقريبا علاقات زوجة بزوج ، فيما عدا الجنس : لم تستطع أن تعمل مع رجل دون أن تمنح تعاطفا حميما رقيقا.

فى فرنسا وقعت فى الحب ، وبقيت هناك عاما. وعندما بلغ ذلك الحب نهايته ، حملتها حالتها النفسية على السفر إلى إيطاليا – لا ، تلك طريقة خاطئة فى طرح الموضوع. عندما صورته لنفسها بتلك الطريقة ، قالت لنفسها فى شك: ليست تلك هى الحقيقة. الواقع أنها كانت قد وقعت فى غرام

عنيف ؛ ومع ذلك لم تستطع أن تحمل نفسها على الزواج. كان السفر إلى إيطاليا (لم يكن لديها أدنى رغبة فى السفر) طريقة يائسة لكن أخيرة لإنهاء العلاقة. ببساطة لم تستطع أن تواجه فكرة الزواج. فى إيطاليا عملت فى مكتب سفريات ؛ وهناك التقت برجل أحبته. لم يكن ذلك الهوى العنيف الذى عاشته فى العام السابق ، لكنه كان جادا بما يكفى للزواج. فى وقت لاحق ، انتقلت إلى أمريكا. لماذا أمريكا ؟ ولِمَ لا ؟ – عُرِضت عليها وظيفة جيدة هناك فى الوقت الذى كانت تتطلع إلى أىّ مكان تذهب إليه.

أقامت هناك عامين ، وقضت ، كما يقولون ، وقتا رائعا. كانت آنذاك أكثر حذرا إلى حد ضئيل فيما يتعلق بالوقوع فى الحب ؛ لكن مع ذلك كان هناك رجل كاد يقنعها بأن تبقى فى نيويورك. فى اللحظة الأخيرة استبدّ بها شعور جامح مقبض: مالى ولهذا البلد ؟ سألت نفسها. فى هذه المرة ، كان هجر الرجل جهدا محطِّما ؛ لم تكن تريد أن تهجره. لكنها سافرت جنوبا إلى الأرجنتين ، ولم تكن حالتها النفسية سارة.

أيضا ، اكتشفت أنها لم تعد بنفس الكفاءة السابقة. كان ذلك لأنها كانت قد أصبحت أكثر حذرا ، وأقل تكيُّفا. وخوفا من الوقوع فى الحب ، تعمدت أن تهرب من الأشخاص الذين عملت معهم ؛ ولم تعد تعطى إلا بقدر ما كان يُدفع لها لتعطيه ، ولم يُرضها ذلك. ما الذى كان سيُرضيها ، إذن ؟ على أية حال ، لم يكن بوسعها أن تقضى كل حياتها فى التنقل من قارة إلى قارة ؛ على أنه لم يكن يبدو أن هناك أى مبرر لأن تستقر فى مكان دون آخر ، ولا حتى لأن تكون مع رجل دون آخر. كانت مرهقة. كانت مرهقة جدا. لقد جفت ينابيع أحاسيسها. وهذا النوع من الضيق بالتحديد لا يسهل علاجه.

والآن ، للمرة الأولى ، كانت لها علاقة غرامية عابرة مع رجل لم تكن تُكِنُّ له أىّ اهتمام: كان هذا اختيارا نصف متعمد ، ذلك أنها أدركت أنه لم يكُن بوسعها أن تختار رجلا قد تقع فى حبه. واستمر الأمر هكذا ، ربما

عامين. كانت لا تقيم صلات إلا مع أشخاص لا يحركون مشاعرها تماما ؛ وهذا لأنها لم تكُن ترغب في أن يحرك مشاعرها أحد.

عندئذ وصلت إلى نقطة قالت فيها لنفسها أنها ينبغى أن تحسم الآن ، وبشكل نهائى ، ماذا تريد ، وأن تقوم بتضحيات لتحقيقه. كانت فى الثامنة والعشرين. كانت قد قضت السنين الذى مرت منذ أن تركت المدرسة متنقلة من فندق إلى شقة مفروشة ، من وظيفة إلى التالية ، من بلد إلى آخر. وبدا أنها تحمل ذكريات حنونة مرهقة مع أشخاص كثيرين جدا ، رجال ونساء ، ملأوا حياتها من قبل. عندئذ حان الوقت لعمل شىء دائم. لكن ماهو ؟

قالت لنفسها أن قلبها يتحجر ؛ لكنها لم تكن متحجرة القلب ؛ كانت متبلدة الحس ومنهكة. يجب أن تكون حذرة للغاية ، هكذا قررت ؛ يجب ألا تقع فى الحب ، بخفة ، مرة أخرى. فى المرة القادمة ، يجب أن يكون الأمر جادا.

كانت كل هذا الوقت تعيش حياة اجتماعية كاملة: كانت جذابة ، أنيقة ، فكهة. نالت شهرة بأنها متقدة الذكاء وباردة. كانت أيضا وحيدة ولم تكن وحيدة قبل ذلك قط ، فقد كان هناك دائما رجل تمنحه الدفء ، الحنان ، التعاطف.

ذات صباح رأت رؤيا شريرة. كان ذلك عند شرفة فندق كبير ، فى نهار صيفي دافىء ، بينما كانت تطل على شوارع المدينة الحديثة الساحرة فى أمريكا الجنوبية ، بجموع الناس وحركة المرور الدائبة النشاط... كان يمكن أن تكون أى مدينة تقريبا ، فى يوم مشرق دافىء ، من شرفة فندق ، والناس يطيرون مع الريح كأوراق الشجر أمام بصرها ، بلا جذور مثلها ، عديمي الدوام مثلها ، وحياتهم لا تعني سوى القليل مثل حياتها. للمرة الأولى فى حياتها ، كانت كلمة شرير تعني شيئا بالنسبة لها: نظرت إليها ، ببرود ، ونبذتها. هذه رقة شعور ، قالت لنفسها ؛ وهى نتيجة لكونها مرهقة ، وفى الثلاثين تقريبا. لم يكن ذلك الشعور مرتبطا بأى شىء. لم يكن بوسعها أن تشعر – لماذا يتعين على المرء أن يشعر ؟ لقد كرهت ما كانته – كان من

الأمانة على أى حال أن تتقبل نفسها باعتبارها غير جديرة بالحب. لاحظ عقلها بنزاهه أنه إذا عاش المرء بلا قواعد ، فعليْه أن يكون مهيأ لجنْى العواقب ، حتى إن كان ذلك يعنى لحظات من الفزع عند شرفات الفنادق ، والموت يشير متوعدا أسفل الفندق ويهمس: لماذا تعيشين ؟ على أية حال ، من الذى كان مسئولا عن الحالة التى كانت فيها ؟ هل قامت بالتخطيط لذلك فى أى وقت من الأوقات ؟ لماذا يجب أن يكون المرء شيئا ولا يكون شيئا آخر؟

كانت المصادفة هى التى قادتها إلى كيب تاون. التقت فى حفل برجل عرض عليها أن تعمل كسكرتيرة له فى رحلة عمل ، وكان من السهل أن تقبل ، ذلك أنها كانت قد وصلت إلى حد أن تكره أمريكا الجنوبية.

أثناء الرحلة إلى هناك اكتشفت ، وهى تتأوه باستنكار ، أنه لم يسبق لها قط أن كانت أكثر كفاءة ، أكثر مسئولية ، أكثر رقة فى الاستجابة. كان رجلا تعيساً ، ويحتاج إلى العطف ... فمنحته إياه. فى نهاية الرحلة طلب منها الزواج ؛ وأدركت أنها كانت ستشعر بنفس الشعور تقريبا لو أنه طلبها للغداء معه، وهربت.

كانت قد ادخرت نقودا كافية لأن تعيش دون أن تعمل ، وهكذا أقامت بمفردها شهورا ، فى فندق صغير بعيدا على الجانب الآخر من كيب تاون ، حيث كان يمكنها أن تراقب السفن رائحة غادية فى الميناء وتفكر: إنها قلقة مثلى تماما. عاشت فى دعة ، تفحص كل انفعال تشعر به ، لا تقيم أى صلة فيما عدا الصلات العارضة التى لا يمكن تفاديها فى فندق ، تمشى بمفردها ساعات كل يوم ، تنقع نفسها فى البحر والشمس كأنما كان بوسع شبه الجزيرة الحسناء أن تشفيها بقوة جمالها. وولت هاربة من أية إمكانية للميل نحو أى كائن بشرى آخر وكأن الحب ذاته كان مسموما .

ذات أصيل دافىء بينما كانت تسير على ارتفاع بمحاذاة جانب أحد الجبال ، والبحر الأزرق فى الأسفل يضطرب ويرتفع ، وشمس غاربة ترسل شعاعاً أحمر حزينا من الأفق ، فوجئت بشخصين آخرين يسيران. لم يكن

هناك أى شخص آخر غيرهما على مدى البصر ، وكان محتما أن يستمروا معا. علمت أنهما من أصحاب المزارع من روديسيا فى إجازة ، أخوان غير شقيقين ، وقد حققا بجهدهما نجاحاً اقتصاديا ؛ وكانت هذه أول إجازة يحصلان عليها منذ سنين ، وكانا فى مزاج منطلق ، دافىء جسور. وأدركت أنهما يبحثان عن زوجتين يعودان بهما.

أحست بميل إلى توم منذ البداية ، رغم أنها على مدى يوم أو نحو ذلك عابثت كينيث. كان هذا استجابة آلية لنزوعه العدائى الضاحك المتحدى. كان كينيث هو الذى بدأ الحديث أولاً ، بأسلوبه الفظ الجاف ، وأحست بأنها منجذبة إليه: كان ما بينهما علاقة شخصين يسيران فى اتجاه علاقة غرامية. لكنها لم ترغب حقيقة فى أن تعابث ؛ مع كينيث بدا استحالة أى شىء آخر. استوقفتها الطريقة التى أنصت بها توم ، الأخ الأكبر ، إلى مشاحناتهما ، بابتسامة هادئة ، ويتسامح تقريبا: كان سلوكه دفاعيا إلى حد كبير. كان أكثر من دفاعى. بعد ذلك بفترة طويلة قالت لتوم أنه ذكّرها فى ذلك الأصيل الأول بالفلاح الذى يستخدم طائرا ليصطاد له السمك. على أنه كانت هناك لحظة خلال تجولّهم الطويل فى طريق العودة إلى المدينة طيلة المساء الذى كان يزداد عتمة ، تطلعت فيها چوليا إلى توم بفضول ورأت نظرته الدافئة المغتمة تستقر عليها بحنان بطريقة متمهلة متأملة ، واختارته ، فى تلك اللحظة ، بينها وبين نفسها ، حتى فيما كانت تواصل معابثة كينيث. بسبب ذلك الحنان ، تركت نفسها تستغرق فى فكرة الزواج. كان ذلك ما أرادته ، حقا ، ولم تهتم بالمكان الذى ستعيش فيه. من الناحية العاطفية لم يكن هناك بلد يمكنها أن تقول عنه: هذا وطنى.

لعدة أيام تجوّل ثلاثتهم معا ، وكانت طوال الوقت تمازح كينيث وتراقب توم. كان ذلك الشىء الدفاعى المتذمر الذى كان بوسعها أن تحس به فى كينيث ، والذى جذبها ، ضد إرادتها ، هو ما كانت تخشاه: كانت تترقب ، نصف خائفة ، ونصف ساخرة ، ظهور ذلك الشىء فى توم. ثم ، تدريجيا ،

أصبح تعامل كينيث معها أكثر فظاظة وقسوة: أدرك أنه كان يجرى استغلاله. ثم جاءت لحظة صدها عن نفسه بأسلوبه المتهكم الصريح؛ ولفترة كانوا ، ثلاثتهم ، معا بلا تواصل. من قبل كانا كينيث وهى ، فيما كان توم كمتفرج مهذب ؛ أما فى تلك اللحظة فكانت هى ، بمفردها ، تتجرف وحدها ، تهيم طليقة ، تنتظر ، إن جاز القول ، أن يضمها أحدهما إلى نفسه ؛ وأمكن تحديد الموقف عندما نظر توم وكينيث كل منهما إلى الآخر بسخرية ، متفاهمين ، قبل أن ينتقل توم إلى موقع كينيث بطريقته الدافئة المتروية ، طالبا إياها.

كان ألطف مما ظنته ممكنا. فجأة زال الصراع. استمع إلى حكاياتها عن حياتها باهتمام غير متحيز ، كأنها حكايات من غير المحتمل أن تعنيه. ذات مرة ، أبدى ملاحظة – بطريقته الدفاعية الرقيقة: « لابد أنك تألمت بشدة فى وقت ما. تلك هى المشكلة معكن أنتن النساء المستقلات. أنت ، فى الواقع ، امرأة لطيفة جدا ، يا جوليا ». سخرت منه بازدراء ، بوصفه ذكرا متعجرفا يتعين عليه تكوين تصورٍ من نوع ما عن امرأة ليكون قادرا على أن يكيِّفها مع حياته. تعامل مع سخريتها بتسامح. عندما كانت تقول أشياء من هذا النوع كان يجد ذلك مجرد نوع من الحدة ، علامة على خفة دمها. قالت لكينيث ، نصف ضاحكة ونصف يائسة: « أنت تدرك تماما أن توم ليست لديه فكرة عمن أكون ؟ هل تظن أن من المناسب أن أتزوج منه ؟ »

« عظيم ، لم لا ، إذا كان يريد أن يصبح متزوجا ؟ » رد كينيث بسرعة. « هو رومانسى. وهو ينظر إليك على أنك متجوِّلة من مدينة إلى مدينة ، ومن فراش إلى فراش ، لأنك تحاولين مداواة قلب محطم أو شيئا من هذا القبيل. ذلك يروق له ».

أصغى توم إلى هذا صامتا ، مبتسما بقلق. لكن كانت هناك مرات أحبت فيها جوليا أن تعتقد أن لها قلبا محطما ؛ لا شك فى أن قلبها كان يحس بأنه جريح. كان يريحها أن تتقبل فكرة توم عنها. قالت بانكسار

لكينيث: « أعتقد أنك تفهم بكل سهولة لماذا عشت حياتي بهذه الطريقة ؟ ».

رفع كينيث حاجبيه. « لماذا ؟ بالطبع لأنك كنت تستمتعين بها. هل يوجد سبب أفضل ؟ ».

لم تستطع أن تمنع نفسها من الضحك ، حتى وهي تقول بضيق ، وتشعر بأنه قد أسيء فهمها: « الحقيقة أنك سيء مثل توم. أنت تخترع قصصا عن النساء ، أيضا ، لترضي نفسك. أنت تحب أن تعتقد أن النساء قاسيات ومصممات على استغلال الرجال والسخرية منهم ».

قال كينيث: « بالتأكيد ، هذا أفضل كثيرا من أن تتركن الرجال لاستغلالكن. أحب أن تعرف النساء ما يردْن ويحصلن عليه ».

كان هذا النوع من الحديث يضايق چوليا ويحزنها: الواقع أنه كان كالزبد الذي يضطرب على سطح البحر ، بينما التيارات تحت السطح داكنة ومجهولة.

لم يرقْ لها أن يجرى تذكيرها كم كان يفهمها كينيث أكثر من توم. سرّها أن تنتهي من مهمة المراسم. تزوجها توم بطريقة هادئة ومتأنية ؛ لكنه قال أن الزواج ينبغي أن يتم قبل تاريخ معين لأنه كان يريد أن يبدأ الزرع قريبا.

حضر كينيث كشاهد للعريس بوميض ماكر في عينيه ، وبمظهر مُشاهد يتمنى الخير للآخرين ، مهتما بأن يرى كيف ستنتهي الأمور. تبادل هو وچوليا نظرة تفهم خالص ، ضد إرادتهما إلى حد كبير ، لأن موقف كل منهما تجاه الآخر كان في تلك اللحظة موقف صداقة خفيفة. وهي مطمئنة بين ذراعي توم ، أباحت لنفسها بأن تفكر في أنه لو لم يكن كينيث رجلا من ذلك النوع الذي يشعر بموقف دفاعي تجاه امرأة لأنه ببساطة كان يستمتع بالشعور بموقف دفاعي ، لكان إذن أسوأ كثيرا بالنسبة له. كان هذا إحساسا انتقاميا ضئيلا داخلها ، لكنها كانت بوجه عام رحبة الصدر بما فيه الكفاية. كانت رحابة الصدر ضرورية ؛ كان ثلاثتهم سيعيشون في بيت

واحد ، في نفس المزرعة ، دون أن يروا الآخرين إلا نادرا للغاية.

رغم كل شيء ، كانت الأمور سهلة تماما. لم يكن على كينيث أن يتوارى عن الأنظار. دون أى جهد أكّد توم حقه في جوليا كزوجة له ، بفضل ثقته الهائلة الكسولة بالنفس ، وكانت هي سعيدة بأن تكون موضع تأكيد ذلك الحق. احتفظت هي وكينيث بتفاهم ظريف. خُصِّصت له ثلاث حُجرات في أحد أجنحة البيت ؛ لكن لم يمض وقت طويل حتى أصبحت مهجورة. بدا له أن من السخف أن ينسحب إلى جناحه بمفرده بعد العشاء. في الأمسيات ، كانت حقيقة أن جوليا كانت زوجة توم تتجلى عن طريق وضع مقعديهما الكبيرين جنبا إلى جنب ، مع وضع مقعد كينيث في مواجهتهما . اعتاد أن يجلس في مكانه يراقبهما بابتسامته اليقظة والمتهكمة بعض الشيء.

بعد فترة أدركت جوليا أنها تحس بعدم ارتياح ؛ أرجعت ذلك إلى حقيقة أنها كانت تتوقع حدوث خصومة خفية بين الرجلين ، وكان عليها أن تقوم بتهدئتهما ، بينما لم تحدث في الواقع أى خصومة. بل حدث ما هو أعمق من ذلك. في تلك الليالي القليلة الأولى التي انسحب فيها كينيث إلى حجراته بلباقة ، لكن وهو يبدو هازلا ، كان توم قلقا: كان يفتقد كينيث بشدة. راقبتهما جوليا ؛ وأدركت وقلبها يغوص بهزل فضولي أنهما كانا قريبين إلىبعضهما بحيث لم يكن بمقدورهما أن يتحملا الابتعاد لفترة طويلة. في الأمسيات كانا هما اللذان يتحادثان ، حديثا مازحا غريبا اعتادا عليه حتى عندما يكونان جادّين: خاصة عندما يكونان جادّين. كان توم يحب أن يجلس كينيث في مواجهتهما ، وهو يُبدى التعليقات الحادة والمتشككة حول هذا الزواج: كانا يتشاكسان بطريقة كان يمكن - لو كانا رجلا وامرأة - أن تبدو معابثة غرامية دون أدنى شك. فيما كانت تنصت إليهما ، أحست جوليا بقلق بالغ ، وكأنها بصدد انحراف. من الأفضل أن تتلهى بحنان بسلوك الأخ الأكبر لدى توم تجاه كينيث ؛ في كثير من الأحيان كان هناك شيء ما وقح ، متمرد ، صبياني ، في سلوك كينيث تجاه توم. لماذا كان توم يمارس أيضا

وضع الأخ الأكبر عليها ، هي التي دبّرت حياتها ، بكل تلك الكفاءة لسنوات في كل أنحاء العالم. حسنا ، ألم يكن ذلك ما جعلها تتزوج منه ؟

تقبلت ذلك. تقبلوا ذلك جميعا. اعتادوا على تفهم صامت مريح. كان توم ، إن جاز القول ، هو رأس العائلة ، آمرا ، قويا ، وربما متبلد الحس قليلا ، كما ينبغي للسلطة أن تكون ؛ وأذعن له كينيث وچوليا ، بأقل قدر من السخرية ، لتمويه حقيقة أنهما كانا سعيدين بأن يذعنا: كم هو سار أن تترك المسئولية ملقاة على عاتق شخص آخر !

بل تعلمت چوليا أن تتقبل فكرة أنه عندما يكون توم مشغولا ، أن تذهب في نزهة مع كينيث ، أو تسبح مع كينيث ، أو تقوم برحلات إلى المدينة مع كينيث ، لم يكن ذلك فقط بموافقة توم: ما هو أهم أنه كان يحب هذا ، بل كان يحتاج إليه. أحست أحيانا وكأنه يحثها على أن تكون مع أخيه. أحس كينيث بذلك و تمرد عليه ، نافرا بطريقته الوقحة كأخ أصغر. كان يتعجب: « يا إلهي ، أيها الرجل ، چوليا زوجتك أنت ، وليست زوجتي ». كان توم يضحك مرتبكا ويقول: « لا أحب فكرة أن أكون غيورا ». كانت فكرة أن يكون توم غيورا سخيفة إلى حد أن چوليا وكينيث بدآ يقهقهان يائسيْن ، مثل طفليْن متآمريْن وماكريْن. وعندما كان توم ينصرف ، ويتركهما معا ، كانت تقول لكينيث ، بطريقتها الجادة القلقة: « لكنني لا أفهم هذا. لا أفهم شيئا منه. هذا مخالف لطبيعة الإنسان ».

كان كينيث يرد ببساطة: « إنه كذلك ». كان ينظر إليها بوميض ساخر في عينيه. « ينبغي أن تأخذي الأمور كما تأتي يا زوجة أخي العزيزة ». لكن چوليا كانت تحس بأنها تفعل ذلك بالتحديد؛ كانت تسترخي ، دون تفكير ، منجرفة في دفء ودعة داخل حوزة توم الدافئة المريحة؛ والتي كانت أيضا حوزة كينيث ، ولأن توم أراد الأمر على ذلك النحو.

بالرغم من توم ، أبقت على حاجز رقيق لكنه متين مع كينيث ، لأنهما كانا شخصين يمكن أن ينجذب كل منهما إلى الآخر بقوة. مرة أو مرتين ،

عندما تركهما توم بمفردهما ، انفجر كينيث غاضبا: « في الحقيقة ، لماذا أزعج نفسي بأن أكون مخلصا في هذه الظروف التي لا يمكنني أن أتصورها ».

سألت جوليا ، حائرة: « لكن ما هي هذه الظروف؟ ».

اعترض كينيث غاضبا: « يا إلهي ، جوليا ... »

ذات مرة وهو في حالة شرسة من الانفعال ، أبدى هذه الملاحظة البذيئة: « الحقيقة: هي مسألة زمن فقط ، أصبح لتوم ولي زوجة ». وبدأ يضحك ، ولم تكن ضحكته بالغة اللطف.

لم تفهم جوليا. بدت لها ملاحظته قبيحة.

نظر إليها كينيث متهكما وقال: « لحسن حظه ، لا يعرف توم شيئا عن نفسه مطلقا ».

لكن جوليا لم يَرُقْ لها أن يقال هذا عن زوجها ، حتى رغم أنها أحست بأنه صحيح. على نحو غريزي تحاشيا في المستقبل هذا الحاجز المحدد في علاقتهما المتبادلة؛ وكانت حذرة مع كينيث ، رافضة أن تتناقش معه حول توم.

من وقت لآخر خلال هذين العامين قبل رحيل توم إلى الحرب ، كان كينيث يقوم بفحص (حسب تعبيره) الفتيات في المزارع المحيطة ، بقصد الزواج. ضجر منهن. كانت له علاقة غرامية ممتدة مع امرأة متزوجة سئمت زوجها. أبدى ملاحظات ظريفة لتوم وجوليا حول مكانته كعاشق. أحيانا كان ثلاثتهم يفطسون من الضحك على أوصافه لنفسه كزير نساء: كانت السيدة رومانسية ، وكانت تحب الغزل. لم يكن كينيث رومانسيا ، وكان اهتمامه بالسيدة مقتصرا على غرض لم يكن بوسعه أن يمنع نفسه من وصفه بأسلوبه اللاذع ، الكريه ، المعهود ، خلال تلك الأمسيات الطويلة مع الزوجين. مرة أخرى ، انتاب جوليا ذلك الإحساس غير المريح بأن توم كان بالغ الاهتمام في الواقع – لا ، لم تكن تلك هي الكلمة ؛ لم يكن ما كان يبديه توم هو

الاهتمام العابر لمستمع يتسلى؛ وهو ينصت إلى كينيث يتحدث باستظراف عن علاقته الغرامية ، كان يبدو وكأنه يُشْرِك نفسه ، وكأنه يحث كينيث بصمت على المزيد من إفشاء الأسرار. في هذه المناسبات أحست چوليا باشمئزاز من توم. قالت لنفسها أنها غيرانة ، وكبتت إحساسها.

عندما بدأت الحرب أصبح توم قلقا؛ أدركت چوليا أنه على وشك الرحيل. تطوع قبل أن يكون هناك تجنيد إلزامي؛ وراقبت هي ، بحزن ساخر ، المشهد (وكان مشهدا غير مريح) بين رجُلَيْها ، عندما بدا أن توم يحس بأنه مدفوع إلى الاعتذار لكينيث لأنه أخذ مكانه في الإمساك بفرصة نادرة للسعادة. كان كينيث معتل الصحة: أتى الأخوان إلى أفريقيا في المقام الأول بسبب رئتي كينيث الضعيفتين. لم يرغب كينيث مطلقا في الذهاب إلى الحرب. صاح قائلا لتوم: « يا إلهي! لا حاجة بك لتقديم هذا التبرير. عفوا. أنا لست رومانسيا. لا أحب أن أُقتل إلا في قضية تستحق. لا أرى أي فائدة في هذا الأمر ». بهذه الطريقة أظهر أنه ينبذ الحرب واضطراب العالم. اما توم فلم يكن هو الآخر يهتم بشئون الحرب. كان يكفي أن هناك حربا. في نظر كلا الرجُلَيْن كان من البديهي أن من المستحيل مطلقا أن تهزم انجلترا في حرب؛ ربما كانا سيضحكان من موقفهما (وهذا ما فعلاه عندما سخرت چوليا منهما من منطلق أمميتها المتسامحة التي اكتسبتها من أسفارها) ، لكن ذلك هو ما كان يحسان به ، مع ذلك.

أما چوليا فكانت أكثر تعاسة من أيٍّ منهما بسبب الحرب. كانت قد استقرت في حياة آمنة في المزرعة؛ أما الآن فإن العالم ، الذي أرادت أن توصد بابها دونه ، اقتحم حياتها من جديد؛ وفكّرت في أصدقائها الكثيرين ، في بلدان كثيرة جدا ، في قلب الأحداث ، وأحست بمشاعر تحيّز غريبة بدت لها سخيفة. ذلك أنها كانت تفكر كما يفكر الناس ، وليس الأمم أو القضايا؛ وكانت الحرب ، في نظرها ، مسألة أن البشر أصيبوا بالجنون ، وأخذوا في قتال بعضهم بلا معنى. دائما انعدام معنى كل شيء! والآن لم يُسمح لها بأن

تنسى ذلك.

لكى تؤدى واجبها ، كبحت كل تعاستها وغيظها الأنثوى لهجر توم لها بكل هذه السهولة عند أول صوت لبوق حملته الريح يدعو الى المجازفة. فقط قالت له في ازدراء: « يا لك من طفل! كأن الحرب السابقة لم تقع! ثم انظر إلى كل الرجال فى المقاطعة ، مسرورين جدا لأن شيئا مثيرا يوشك على الحدوث. لو أنك كنت مهتما أدنى اهتمام بالحرب ، لربما احترمتك. لكنك لا تهتم ، كما لا يهتم أغلب الناس الذين نعرفهم ».

لم يرق هذا لتوم. أثار فيه جو الحرب وطنية ظاهرية. سخرت منه چوليا قائلة: « أنت تبدو مثل افتتاحية جريدة. أنت فى الواقع لا تصدق كلمة مما تقول. الحقيقة أن أغلب الناس مثلنا ، فى كافة البلدان التى ذهبت إليها ، لا يملكون فكرة يؤمنون بها حول أى شىء. نحن لا نصدق الشعارات والأكاذيب. ما يثير اشمئزازى هو أن أرى أن الطريقة التى تثيركم جميعا هى لحظة نشوب الحرب ».

أغضب هذا توم ، لأنه كان صحيحا؛ ولأنه تذكر فجأة ارتباطه العاطفى بانجلترا ، على طريقة روبرت بروك. كانوا متوترين تجاه بعضهم فى الأيام التى سبقت رحيله: كان سعيدا بالرحيل ، خاصة وأن كينيث لم يكن أقل سخرية. كانت هذه هى المرة الأولى على الإطلاق التى يفترق فيها الرجلان؛ وأحست چوليا بأن كينيث متألم مثلها لأن توم تركهما بكل تلك السهولة. فى الحقيقة ، كانوا جميعا مسرورين عندما أمكن لتوم أن يرحل من المزرعة ، ووضع حدا لبؤس تعذيب كل منهم للآخرين.

لكن بعد سفره ، صارت ، چوليا بالغة التعاسة. افتقدته إلى أبعد حد. كان الزواج أمانا أكبر مما تصورته ممكنا لها. كانت تتصور أنها شفيت ، عندما تعلمت أن تدع الجانب القلق الحساس من نفسها يموت؛ أن تتجرف؛ أن تسترخى؛ أن تستمتع بأفريقيا كبلد ، بالطريقة التى تبدو بها وبالطريقة التى تُحَسُّ بها؛ أن تستمتع بالأشياء الجسدية على مهل ، وبدون تعجُّل.

والآن ، بدون توم ، كانت لا شيء. زال عنها السند والدفء؛ وأدركت أن الزواج ، رغم كل شيء ، لم يشفها من شيء. كانت ماتزال تطفو بلا جذور ، بلا سند؛ لم تكن تنتمي إلى مكان؛ وحتى أفريقيا ، التى صارت تحبها ، لم تعني شيئا في الواقع بالنسبة لها: كانت بلدا آخر زارته زيارة عابرة كما يفعل طائر مهاجر.

على أن كينيث لم يكن عونا على الإطلاق. في وجود توم في المزرعة ربما كانت قادرة على أن تنجرف مع التيار ، لتتخذ الموقف التقليدى تجاه الحرب. لكن كينيث اعتاد أن يُشغّل جهاز الراديو في الأمسيات ويترجم أخبار الحرب بطريقة لاذعة إلى عمل وحشي فوضوى لامعنى له كما كانت تراه هي الأخرى. كان يتكلم بسخرية قاسية تعني أن الناس يعانون ، وكان بوسعها أن تسمعه يتردد في صوتها هي.

« كل شيء على ما يرام » ، كانت تقول له. « كل شيء على ما يرام بالنسبة لنا. نحن نجلس هنا بعيدا عن كل شيء. ملايين من الناس يعانون الآن ».

« الناس تحب المعاناة » ، كان يرد بغضب. « انظرى إلى توم. هناك يربض في الصحراء ، في منتهى الضجر. سيظل يتحدث عن أفضل سنوات عمره لعشر سنوات قادمة ».

كان بوسع چوليا أن تسمع صوت توم ، وهي تتذكر المغامرة بحنين إلى الماضي ، فقط بكل وضوح. في نفس الوقت أغضبها كينيث ، لأنه يعبر عما أحست به ، ولم تكن تحب الطريقة التي تحس بها. إلتحقت بالمجموعات المحلية للنساء وبدأت أشغال الإبرة والمشاركة في المناسبات الاجتماعية في المقاطعة؛ وتورد وجهها عندما رأت عينيْ كينيث الباردتين الغاضبتين تستقران عليها. « بالله عليك ، يا چوليا ، أنت سيئة مثل توم ... »

« عظيم ، بالتأكيد على المرء أن يكون جزءا من المقاطعة ، بالتأكيد يا كينيث ؟ » حاولت جاهدة أن تعبر عما كانت تشعر به.

« فقط ما الذى تحاربين من أجله ؟ » سألها. « هل يمكن أن تخبرينى بذلك ؟ »

« أحس بأننا ينبغى أن نكتشف ...»

لم يكن يصغى، كان يندفع متجها إلى المزرعة قائلا: « سأبنى سدا جديدا. إذا لم يقصفوه بالقنابل ، سيكون عملا مفيدا وسط كل هذا الدمار والفوضى. يمكن أن تذهبى وتحيكى ملابس الصوف الجميلة لأولئك الأشخاص البؤساء الذين يتقدمون إلى الموت وأن تستمعى إلى النساء العزيزات وهن يتحدثن عن النازى الكريه، يا إلهى ، يا للرياء. فقط قولى لهن ، على لسانى ، أن يلقين نظرة متأنية على جنوب أفريقيا ، أتفعلين ؟ »

الحقيقة أنه كان يفتقد توم. كان يعطى بسخاء عندما يُطلب منه أن يكتتب فى التبرعات الحربية ، باسم توم ، ثم يحرص على إرسال الإيصالات إلى توم ، بقصد التهكّم. مع تفاقم الحرب واستقرار ثقل وطأة الموت والمعاناة فى ذهنيهما ، كانت چوليا تستمع ليلا إلى خطى غاضبة تذرع المكان جيئة وذهابا ، جيئة وذهابا فى الممرات الحجرية الطويلة فى البيت ، وعندما تخرج مرتدية الروب كانت تجد كينيث ، عيناه غائمتان بالغضب ، ووجهه متوتر وشاحب: « ابتعدى عن طريقى ، يا چوليا. سأقتلك أو أقتل أى شخص. أودّ أن أنسف كل شىء. لماذا لا أنسفه وأنتهى منه. سيكون هذا خلاصا عادلا ».

كانت چوليا تأخذه من ذراعه برقة وتعود به إلى فراشه ، كابحة رعبها البارد إزاء العالم. كان من الضرورى لأحدهما أن يظل سليم العقل. فى تلك الفترة لم يكن كينيث سليم العقل تماما. كان يعمل أربع عشرة ساعة فى اليوم؛ مستيقظا قبل الشروق بوقت طويل ، مسرعا فى طريق العودة إلى المنزل بعد الغروب ، من أجل دراسة مسائية : كان يدرس مقررا علميا عن الزراعة. كان يبنى السدود ، يشق الطرق ، يقيم الجسور؛ وزرع مئات الهكتارات بالأشجار؛ وكان يقيم الجسور للحقول وينزح المياه. كان يصغى إلى الأخبار عن عدة آلاف من القتلى والجرحى ، وعن نسف عدد كبير من

المصانع ، ويلتفت إلى جوليا ، ووجهه متقلص بالكراهية ، قائلا: « على أى حال أنا أبنى ولا أدمر ».

« آمل أن يريحك هذا » ، كانت جوليا تعلق ، متهكمة فى اعتدال ، رغم أنها كانت تحس بالمرارة والعبث.

كان ينظر إليها بحزن ، ويهرول خارجا مرة أخرى ، مبتعدا يبحث عن عمل ينشغل به.

كانا وحيدين تماما فى المنزل، لفترة قصيرة بعد رحيل توم تناقشا حول إحضار مساعد ، مراعاة للتقاليد. لكنهما كرها فكرة وجود شخص غريب ، ثم أهمل الأمر. هجر كثير من الرجال المزارع للذهاب إلى القتال؛ وأصبحت نساء كثيرات بمفردهن ، يقمن بالعمل بأنفسهن أو مع مساعدين ممن لم يكونوا مؤهلين للقتال. فى الواقع لم يكن هناك مايُشين فى إقامة جوليا وكينيث معا. كان من المفهوم فى المقاطعة ، لدواعى استمرار الحرب ، ألا ينبغى أن يكون هذا النوع من المواقف محلاً للقيل والقال.

كان من المحتم أن يصبحا عاشقين. منذ اللحظة التى رحل فيها توم، أدرك كلاهما ذلك.

غاب توم ثلاث سنوات. أنهكها كينيث. اعتراه مزاج سوداوى مرير للغاية ، وكانت تدرك أنه ليس بمقدورها عمل أو قول شىء يساعده ، ذلك أنها كانت فى حالة سيئة مثله تماما.

أصبحت امرأة من النوع الذى أراده : لم يكن يريد امرأة ودودة مواسية. كانت سيدته. كانت علاقتهما مبارزة معقدة ، تُدار بالتغاضى ، واللباقة ، والحس السليم – إلا عندما ينفجر غاضبا فى كراهية ويصب جام غضبه عليها. كانت هناك أوقات تخونها فيها فجأة كل حيويتها ، وتبدو وكأنها تغرق بسرعة ، بلا سند ، لترقد عاجزة فى أعماق ذاتها ، وهى تتطلع بلا رغبة إلى حياة العاطفة والدفء تحوّم فوق رأسها برقة. ثم اعتاد كينيث أن يتركها بمفردها ، فى حين أن توم كان سينتشلها برقة إلى الحياة من جديد.

كانت تضرع : « أتمنى أن يعود توم ، أيها المسيح العزيز ، أتمنى أن يعود »

« هل تتصورين أننى لا أتمنى ذلك ؟ » كان كينيث يتساءل بمرارة ، ثم يضيف غاضبا قليلا ، لكن ليس قليلا جدا: « ألا أتمنى ذلك ؟ ».

« إلى حد ما أعتقد »

« ماذا تريدين إذن؟ » تساءل باختصار، مانحا قدرا ضئيلا من الاهتمام الذى كان باستطاعته أن يوفره من عمل المزرعة لمشكلة چوليا ، المرأة.

أجابت چوليا ببساطة: « توم »

فكّر فى هذا بشك. « الحقيقة هى أننا ، أنت وأنا ، بيننا أشياء مشتركة أكثر كثيرا مما بينكما أنت وتوم »

« لا أفهم علاقة "الأشياء المشتركة" بالموضوع ».

« أنت وأنا من نفس النوع من الحيوانات. توم لا يعرف أبسط شيء عنك. لم يستطع ذلك قط ».

« ربما كان ذلك هو السبب ».

بدأت الكراهية تتفجر بينهما ، يلطف منها ، كالعادة ، التغاضى الصبور. فجأة تذمرت چوليا: « أنت لا تحب النساء على الإطلاق ، ببساطة أنت لا تحبنى ، أنت لا تثق بى ».

كان يضحك باستياء: « إذا جئنا للحب ... أنت أيضا لا تثقين بى ، من هذه الجهة ».

كانت تلك هى الحقيقة؛ لم يثق أحدهما بالآخر؛ كان لا يثقان بالعدمية الهدامة المشتركة بينهما. تركتهما مثل هذه المناقشات ، التى تواترت بمرور الوقت ، متصلِّبَين تجاه بعضهما لعدة أيام ، فى حالة من التحدى اليقظ. كان هذا جزءًا من شجارهما الطويل المنهك ، الذى كان تنويعا متواصلا لعداء متبادل إلى ضحك متْعَب.

مع ذلك ، عندما كتب توم قائلا أنه سيتم تسريحه ، طلب كينيث ، بمزاح رقيق ، من جوليا أن تتزوجه. كانت مصدومة ومندهشة. « أنت تعلم تماما أنك لا تريد أن تتزوجني » ، اعترضت. « بالإضافة إلى ذلك ، كيف يمكنك أن تفعل هذا بتوم ؟ » لمحت نظرته الساخرة ، وبدأت تضحك بذهول.

« لا أعرف ما إذا كنت أريد أن أتزوجك أم لا » ، أقر كينيث بأمانة ، ضاحكا معها.

« حسنا ، أنا أعرف. أنت لا تريد »

« لقد تعوّدت عليك ».

« أنا لم أتعوّد عليك. لم أستطع مطلقا »

« لا أفهم ماذا يعطيك توم ولا أعطيك »

« الأمان » قالت جوليا ببساطة. « أنت وأنا نتشاجر طوال الوقت ، نحن لا نفعل قط أي شيء آخر »

« نحن لا نتشاجر » ، احتج كينيث. « لم نتبادل مطلقا – كما يقال – كلمة نابية ». قطّب وجهه: « إلا عندما تُجرح كرامتي ، وهذا شيء مختلف ».

كانت جوليا تدرك أنه لا يستطيع أن يتخيل علاقة مع امرأة لا تقوم على الخصام. قالت ، وهي تدرك أنه لا فائدة: « كل شيء سهل للغاية مع توم ».

« سهل بالطبع » ، قال غاضبا: « هذا الأمر اللعين برمته كذبة من البداية إلى النهاية. مع ذلك ، إذا كان هذا ما تفضّلين ...» هز كتفيه ، وغضبه يتلاشى. قال بطريقة جافة: « تصورتُ أنني مؤهل لأن أكون زوجاً ».

« بعض الرجال لا يصلحون أبدا أن يكونوا أزواجا ، سيظلون عشاقا دائما

« ظننت أن النساء يملِن إلى ذلك ؟ »

« لم أكن أتحدث عن النساء ، كنت أتحدث عن نفسي »

« تمام ، لكل هذا أنوي الزواج »

بعد ذلك لم يتناقشا فى هذا الأمر. تركهما الكلام عما كانا يحسان فى حالة من التشوش والغضب والحيرة.

قبل عودة توم قال كينيث: « ينبغى أن أرحل عن المزرعة ».

لم تكلف خاطرها بأن ترد ، لم يكن كلامه صادقا على الإطلاق.

« سأحصل على مزرعة على الجانب الآخر من المقاطعة ».

ابتسمت فحسب. كان كينيث يكتب خطابات مطولة إلى توم كل أسبوع على مدى تلك السنوات الثلاث ، مفضيا إليه بكل تفاصيل ما كان يحدث فى المزرعة. كانت خطط المستقبل جاهزة بالفعل.

رتّبا أن تذهب چوليا لاستقبال توم فى المدينة ، حيث يقضيان عدة أسابيع قبل أنْ يبدأ الثلاثة حياتهم من جديد. وكما قال كينيث لچوليا ، ساخرا: « سيكون مثل شهر عسل ثان بكل معنى الكلمة ».

وقد كان..عاد توم من الصحراء خشنا ، ملوّحا بالشمس ، مختالا قليلا لأنه لم يكن واثقا من وضعه مع چوليا. لكنها كانت سعيدة برؤيته حتى أنهما عادا فى غضون ساعات قليلة إلى ما كانا عليه. « فيما يتعلق بكينيث ...» ، بدأ توم باحتراس ، بعد أن دارا حول هذا الموضوع عدة أيام.

قالت چوليا بسرعة: « الأفضل ألاّ نتكلم فى هذا الموضوع ».

استقرت عينا توم الزرقاوان عليها ، ليس باستنكار ، بل برجاء. سأل بعد لحظة: « هل سيكون كل شيء على ما يرام ؟ ». أدركت أنه كان مرتاعاً خشية أن تقول له أن كينيث قرر الرحيل. قالت بجفاء: « لم أكن أريد منك أن تذهب إلى الحروب كبطل ، أليس كذلك؟ »

« هذا صحيح » ، سلّم بذلك ، مُسلّما فى نفس الوقت بأنهما متعادلان. الواقع أنه كان مقهوراً أكثر بسبب سنواته كجندى. سارع إلى اسقاط الموضوع. لم يكن قد آن الأوان بعد لأن يبدأ الحديث عن أسعد سنوات عمره. كان لا يزال عليه أن ينسى كم كان ضجرا ، وكم كان يفتقد مزرعته.

على مدى أيام قليلة كان هناك حرج بين الثلاثة. غار كينيث بسبب

الطريقة التى عادت بها جوليا بسرور إلى توم. لكن كان هناك عمل كثير جدا يتمين القيام به ، وكان كينيث وتوم مسرورين باجتماع شملهما من جديد حتى أنه لم يمض وقت طويل قبل أن يغدو كل شيء سهلا كما كان من قبل. اعتقدت جوليا أن كل شيء غدا أسهل: الآن بعد أن ضعف انجذابها إلى كينيث ، وانجذابه إليها ، سيتلاشى القلق الذى كان بينهم دائما. ربما ليس تماما ... كانت عينا جوليا وكينيث تلتقيان أحيانا بذلك التفهّم الغريزى الضاحك الذى لم تستطع قط أن تجده مع توم ، وعندئذ كانت تحس بالذنب.

أحيانا كان توم "يصطحب معه" فتاة من مزرعة مجاورة ؛ وكانوا يتناقشون فيما بعد فى زواجه. « ليتنى أستطيع أن أقع فى الحب » ، كان يتذمر مازحا: « أنت المرأة الوحيدة التى يمكننى أن أطيق التفكير فيها ، ياجوليا ». كان يقول هذا أمام توم ، وكان توم يضحك: كانا قد وصلا إلى مثل هذا الحد من التواطؤ.

سرعان ما كانت هناك مشاريع لتوسيع المزرعة. اشتريا عدة آلاف من الهكتارات من الأراضى المجاورة. كانوا سيزرعون الدخان على نطاق واسع: كان هذا أوان رواج الدخان. كانوا بصدد أن يصبحوا شديدى الثراء.

تم استخدام اثنين من المساعدين فى المزرعة الجديدة ، لكن توم كان يقضى أغلب أيامه فيها. وأحيانا لياليه ، أيضا. بعد أن قضت ثلاثة أيام وحدها مع كينيث ، وقوى الافتتان القديم بينهما ، قالت له جوليا: « أريد أن تترك كينيث يدير تلك المزرعة ».

قال توم ، الذى استوعبته وجذبته المشكلات الجديدة ، بنفاد صبر إلى حد ما: « ماذا ؟ »

« السبب واضح بلا شك »

« الأمر يتوقف عليك ، أليس كذلك ؟ ».

« ربما ليس كذلك ، دائما ».

نشبت الحروب من جديد. بدا رجلا بطيئا متروّيا ، فاتر الهمة. لكنه

أحب أن يبحث عن مشاكل جديدة ليحلها. أصابه الملل. أما كينيث، الرجل السريع، النشيط، المتململ، فقد أحب أن يستقر فى مكان واحد، وأن يُطوِّر ما بيده.

انتاب چوليا مرة أخرى الإحساس البائس بأن توم لم يكن يأبه بها وبكينيث. ثم انتهت إلى قبول فكرة أن كينيث هو الذى كان يهمه حقا: لولا الحرب لما افترقا مطلقا. مات والد توم، وتزوجت أمه من والد كينيث. كان توم دائما مع كينيث، ولم يكن بوسعه أن يتذكر فترة لم يقم فيها بحراسته وحمايته. ذات مرة سألته چوليا: « أعتقد أنك كنت تغار منه بشدة، هذه هى الحقيقة، أليس كذلك ؟ » وأدهشها الانفجار السريع لغضبه الشديد بسبب هذا التلميح. لم تعد إلى هذا الأمر: ما أهميته الآن ؟.

واصل الصبيان الدراسة معا خلال المدارس المتنوعة وكذلك الجامعة، وبدآ العمل بالزراعة فى أوائل العشرينات من عمرهما، عندما لم يكن لديهما بنس واحد، وكانا عليهما أن يقترضا المال لإعالة أمهما، التى كانا يكنان لها حبا عميقا، والذى كان أيضا إعجابا مشوبا بالسخط ؛ كانت فيما يبدو سيدة بائسة، فاتنة، لها كثير من المعجبين فكانت تترك طفليها لرعاية المربيات.

عندما كان توم غائبا عن البيت ذات يوم، ولم يكن ليعود قبل اليوم التالى، قال كينيث بجفاء، بالفظاظة التى هى ثمرة الصراع: « تأتين إلى حجرتى الليلة، يا چوليا ؟ »

« كيف يمكننى ذلك ؟ »، احتججت.

قال بطريقة عملية: « لا أحب فكرة المجىء إلى فراش الزوجية » ، وبدآ يضحكان. بالنسبة لچوليا سيكون كينيث دائما الضحك الذى لا ينضب معينه.

لم يقل توم شيئا، رغم أنه عرف بالتأكيد. عندما ناشدت چوليا مرة أخرى أن يبقى هو فى هذه المزرعة وأن يرسل كينيث إلى الأخرى، انصرف متجهما ولم يرد. لم يتغير أسلوبه معها. وظلت تحس: هذا زوجى، وبالمقارنة مع ذلك الإحساس، أن كينيث لا شىء. فى نفس الوقت استبد بها قلق شرس:

بدا بطريقة شريرة أن الرجلين كان يقرّب بينهما أكثر أيضا، لبعض الوقت، اشتراكهما فى نفس المرأة. هذه هى الطريقة التى عبرت بها چوليا عن الأمر، لنفسها: الحقيقة البسيطة والقاسية.

كان كينيث هو الذى فرّ فى النهاية. ليس من چوليا: من الموقف. عندما جاء وقت أمكن فيه لكينيث أن يقول، وهو يقف مبتسما بسخرية فى مواجهة چوليا وتوم، اللذين كانا يجلسان كزوجين عتيقين على الجانب الخاص بهما من المدفأة: « تعرفان أن من الضرورى تماما أن أتزوج. لا يمكن أن تمضى الأمور على هذا النحو ».

« لكن لا يمكنك أن تتزوج بدون حُب »، احتجت چوليا ؛ وفى الحال كبحت نفسها بضحكة متكدرة – أدركت أن ما احتجت عليه هو أن يرحل كينيث بعيدا عنها.

« لابد أن تدركى أن علىّ أن أتزوج ».

« أنا لا أحب هذه الفكرة »، قال توم، وكأن زواجه هو كان موضوع المناقشة.

« انظرى إلى نفسك وإلى توم »، قال كينيث بطريقة مسالمة، لكن ليس بدون خبث.

« زواج موفق للغاية. ولم تكونا تحبان بعضكما »

« ألم نكن نحب بعضنا، يا چوليا ؟ » سأل توم، مندهشا إلى حد ما.

« فى الواقع أنا كنت "أحب" كينيث » ، قالت چوليا، بما يعنى أن هذا كان أمرا مفروغا منه.

« كنت تريد زوجة. چوليا كانت تريد زوجا. كل هذا معقول للغاية »

« المرء قد "يقع فى الحُب" مرة أكثر مما يجوز »، قالت چوليا، قاصدة بذلك كينيث.

« هل أنت واقعة فى حُب كينيث الآن ؟ »

لم ترد چوليا ؛ ضايقها أن يسأل توم هذا السؤال، بعد أن كان قد

تخلّى عنها لكينيث من الناحية الفعلية. قالت بعد لحظة: « أعتقد أنك على صواب. حقا ينبغى أن تتزوج ». ثم بعد تفكير: « لم يكن بإمكانى أن أتزوج منك، يا كينيث. أنت تحطمنى »، كان وقع الكلمة حادا وسخيفا. أسرعت قائلة: « لم أعرف هل كان من الممكن أن أكون سعيدة كما أنا مع توم ». ابتسمت لزوجها ومدّت يدها وتناولت يده: رد عليها بالضغط على يدها بامتنان.

قال كينيث ساخرا: « إذن، علىّ أن أتزوج ».

« لكنك تقول هذا أنت نفسك »

« لا يبدو أننى أحس بما ينبغى أن أحس به » ، قال توم أخيرا ، ضاحكا بطريقة تنم عن الحيرة.

قالت چوليا: « هذا عيبنا نحن الثلاثة » ، ثم أحست وكأنها على حافة ذلك الشىء الخطير الذى قد يدمّرهم فوقفت وقالت: « لنكف عن الحديث فى ذلك. لن يفيدنا أن نتحدث فيه ».

دار ذلك الحديث منذ شهر. لم يشر كينيث إلى موضوع زواجه منذ ذلك الحين ؛ وتمنت چوليا فى سرها أن يكون قد وضعه على الرف. بعد ذلك بوقت قصير ، خلال تلك الرحلة إلى المدينة ، قضى يوما بعيدا عن توم وعنها – ومع من ؟ وفى اليوم التالى كان سيقوم بالرحلة مرة أخرى ، وللمرة الأولى على مدى سنوات ، منذ أصبحوا معا ، لم يعودوا معا كما كانوا ، حميمين ومتفاهمين ، بل أصبح توم وچوليا معا ، فيما أخذ كينيث ينأى بنفسه ويقيم الحواجز عن عمد.

لم يفتح كينيث فمه طيلة المساء ؛ رغم أن توم وچوليا كليهما إنتظرا منه أن يكسر الصمت. لم تقرأ چوليا ؛ أخذت تنهك ذهنها حول حقائق حياتها بتعاسة ؛ ومن وقت لآخر كانت تتطلع إلى توم ، الذى كان يرد مبتسما بحنان ، مدركا أنها أرادت منه ذلك.

رغم النار ، التى كانت تهدر وتطقطق فى الجدار فى تلك اللحظة ، أحست چوليا بالبرودة. كان للهواء القليل الشديد البرودة الآتى من المرج

المرتفع تأثيرَ تجفيف كهربي في الحجرة الكبيرة العارية. كان السقف يطقطق من البرودة ، وكلما طقطق الصفيح فوق الرءوس استدعى الليل البارد ، المقوّس ، المرصع بما لا يحصى من النجوم ، بالخارج ، وأوراق الشجر الجافة التي لوحتها الشمس ، والحشائش الطويلة المتموجة التي حالت في تلك اللحظة إلى لون مُحمَّص معتم. تغضنت بشرة چوليا وآلمتها بحدة نتيجة الجفاف.

قالت فجأة: « لن يحدث هذا ، يا كينيث. لا يمكنك أن تتصرف على هذا النحو ». نهضت ، ووقفت وظهرها إلى اللهب ، وأخذت تحملق فيهما بثبات. أحست بأنها تتمزق وتتلوى من الداخل ؛ أحست بأنها ليست أثقل من غصين ؛ وقد هرب الدم من عروقها ، بسبب خيانة كينيث ، كانت مجروحة في موضع ما لم يكن بوسعها تحديده. كانت خاوية. كان ذلك ما أحست به.

كان ما رأياه أمامهما امرأة طويلة ، عريضة إلى حد ما ، ذات هيكل ضخم ، تشدّ عظامُ وجهها بشرتَها بقوة. كانت عيناها زرقاوين وصريحتين ، وكانتا في تلك اللحظة معتمتين من شدة القلق ، لكنهما كانتا قلقتين على نحو فكاهي مع ذلك. كانت ترغمهما على النظر إليها ؛ على عقد مقارنات ؛ كانت تتحداهما. كانت ترغمهما حتى على كسر عادة الوفاء الذي يُعمى أعين العشاق عن التغيّر ، بحنانه المبتهج وإنعاشه المتواصل.

رأيا هذه المرأة القوية ، الآخذه في الشيخوخة ، شريكة حياتهما ، وهي تقف هناك أمامهما ، ترفل ما تزال في ثياب الجمال ، ذلك أنها كانت تسرّ الناظر إليها ، غير أن قوة جمالها كانت قد ولّت. تذكّراها ، ربما ، في ذلك الأصيل بجوار البحر عندما التقيا بها مصادفة لأول مرة ، أو عندما كانت حديثة عهد بالوصول إلى المزرعة: كانت فتاة شابة ، ومفعمة بالحيوية ، وهيفاء ، وشبيهة بالصبية إلى حد ما ، بشعر ناعم قصير وعينين زرقاوين ذكيتين ضاحكتين.

في تلك اللحظة ، كان الشعر الناعم ينسدل حول الوجه الصارم ذي

العظام البارزة فى موجات مصففة ، وكانت تلبس فستانا مزخرفا رقيقا: لاحظا تنافرا مزعجا بين هذا التعبير عن الأنوثة وما كان يعرفان عن حقيقتها. كانا متضايقين. بدا لهما وقوفها هناك ، تُذكِّرهما (عندما لم يكونا يريدان أن يذكِّرهما أحد) بأنها تواجه الهجر المحزن الذى ينطوى عليه خريف العمر ، وتواجهه وحدها – بدا لهما ذلك غير ملائم وحتى غير منصف.

قال كينيث باستياء: « آه ، يا إلهى ، أنت امرأة حتى النخاع ، رغم كل شىء يا چوليا. هل من الضرورى أن تثورى ؟ »

كانت ضحكتها السريعة تحمل نفس القدر من الاستياء. « لماذا يجب ألاّ أثور ؟ أحس أنه يحق لى ذلك ».

قال كينيث: « نحن كلنا نعلم أنه ينبغى أن يحدث تغيير. ألا يمكننا أن نستمر بدون هذا النوع من التصرفات ؟ »

قالت بيأس: « بالتأكيد ، لا يمكن لشىء أن يتغير بدون تفسير من نوع ما ...» لم تستطع أن تستمر.

« عظيم ، أى نوع من التفسير تريدين ؟ »

هزت كتفيها مغلوبة على أمرها. بعد لحظة ، قالت ، وكأنها تواصل حديثا قديما: « ربما كان يجب أن يكون لى أطفال ، رغم كل شىء ؟ »

« كنت أقول هذا دائما » ، قال توم برفق.

« أنت الآن فى الأربعين تقريبا » قال كينيث بأسلوب عملى.

« لن أكون أمًّا صالحة » ، قالت. « لم أستطع أن أنافس أمكما. لن أملك الشجاعة لقبول هذا التحدى ، وأنا أدرك أننى سأفشل بالمقارنة مع أمكما المثالية إلى ذلك الحدّ ». أخذت تنزلق إلى التهكم ، غير أن دموعا كانت فى صوتها.

قال توم ببرود: « لنُخرِج أمنا من الموضوع ».

« بالطبع نحن نُخْرِج كل شىء هام من الموضوع ».

لم يقل أىٌّ منهما شيئا ؛ انزويا بعيدا عنها فى عداء. استمرت:

« أتساءل فى كثير من الأحيان ، لماذا كنت تريدنى من البداية ، يا توم ؟ الحقيقة أنك لم تكن تريد أطفالا بوجه خاص ».

« بل أردتهم » ، قال توم ، مرتبكا إلى حد ما.

« ليس بما يكفى لأن تجعلنى أشعر بأنك مهتم بطريقة أو بأخرى. لا شك فى أن أىّ امرأة مهيّأة لذلك ، لأن تحس بأن أطفالها شىء هام. أنا لا أعرف لماذا تزوجتنى ؟ »

بعد لحظة قال كينيث باستخفاف ، محاولا استعادة المظهر المريح لزلاقة اللسان: « أحسست دائما أنه ينبغى أن يكون لنا أطفال ».

لم يستجب أى من توم أو چوليا لهذا الإغراء. أخذت چوليا شمعة من رف المستوقد ، وانحنت لتشعلها من النار ، وقالت: « حسنا ، سأذهب إلى الفراش. الموقف بأسره فوق احتمالى ».

قال كينيث: « حسنا جدا إذن. إذا كنت تريدين أن تعرفى: سأتزوج قريبا ».

قالت چوليا بجفاء: « واضح ».

« ماذا كنت تريدين منى أن أقول ؟ »

« من هى ؟ » بدا توم مستاءً إلى حد أن ذلك غيّر من وطأة المناقشة: فى تلك اللحظة كان توم وكينيث هما الخصمين.

« هى فتاة من انجلترا ، وصلت إلى هنا منذ بضعة أشهر فى إطار مخطط لاستقدام نساء صالحات للزواج إلى المستعمرات ... ، هذا ما يرمى إليه المخطط ».

« نعم ، لكن الفتاة؟ » سألت چوليا ، مندهشة بالرغم منها من نفور كينيث من فكرة الزواج نفورا لا يتزعزع.

« حسنا ...» تردد كينيث ، وعيناه الداكنتان البراقتان على وجه چوليـا ، وفمه ينزلق فى لهو ساخر. « هى جميلة ، حلوة، تبدو بارعة، تريد الزواج ... ماذا أريد أكثر من هذا ؟ » كانت العبارة الأخيرة فظة. لقد وصلوا

إلى طريق مسدود.

« أنا ذاهبة إلى الفراش ! » صاحت جوليا فجأة ، والدموع تنهمر على وجهها « لا أستطيع أن أتحمل هذا ».

لم يقل أى منهما شيئا لمنعها من الانصراف. عندما انصرفت ، أتى كينيث بحركة دفاعية غريزية تجاه توم. بعد لحظة قال توم بضيق ، لكن بلهجة آمرة: « شيء سخيف أن تتزوج عندما لا تكون هناك حاجة إلى ذلك ».

قال كينيث غاضبا: « من الواضح أن هناك حاجة لذلك ». ونهض ، وتناول شمعة أخرى من رف المستوقد. بينما كان يغادر الحجرة — وكان من الواضح أنه غادرها ليفوِّت على توم الضجة التى كان يوشك على إثارتها — قال: « أريد أن يكون لدى أطفال قبل أن أشيخ. يبدو أن هذا هو الشيء الوحيد الباقى ».

عندما دخل توم حجرة النوم ، كانت جوليا ترقد على الوسادة بعينين عصاهما الدمع فى انتظاره. كانت تنتظره لكى يسرِّى عنها ويعيد الطمأنينة إليها. لم يكن قد خذلها قط. عندما دخل الفراش ، وجدت نفسها تُسرِّى عنه: أصابها ذلك بإحساس مضاد معكوس حتى أنها لم تستطع أن تنام.

عقب طعام الإفطار مباشرة رحل كينيث إلى المدينة. كان أنيق الملبس: عادة لم يكن يهتم بمظهره ، وكان يبدو أنه يرتدى ملابسه كمن يلتقط بعض الأدوات للقيام بعمل ما. استحسن ثلاثتهم مظهره بابتسامات صغيرة مغتصبة ، واحمرَّ وجه كينيث عندما دلف إلى السيارة. « ربما لا أعود الليلة » ، استدرك ، وهو يندفع بالعربة دون أن ينظر وراءه.

راقب توم وجوليا العربة الضخمة وهى تشق طريقها بصعوبة بين الأشجار ، واستدارا ليواجه كل منهما الآخر. سألها: « أتحبين أن تأتى معى إلى الحقول ؟ » ، وافقت بامتنان: « نعم ، أحب ». ثم أدركت — وجعلها إدراك ذلك تجفل منكفئة على نفسها — أنه كان يطلب منها ذلك ، ليس من أجل راحتها ، بل من أجل راحته هو.

كان يوما عاصفا مشمسا ، وشديد البرودة ؛ كان الشتاء قد استحوذ على المرج خلال الليلة الفائتة.

كان المنزل مبنيا على قمة تل صغير ، وتترامى البلدة على الجانبين. كان الفصل الجاف يجعل المشهد يتحول إلى الأخضر الزيتونى والأصفر الباهت ؛ وكان هناك ذلك التعارض الصارخ بين المناخ الرائق المتألق ، بأشعة الشمس تنسكب مثل روح جذلة ، وبين البرودة الجافة التى تيبس الوجه واليدين الأمر الذى جعل چوليا لا ترتاح فى الشتاء. كان يبدو وكأن الجفاف أحال البرودة إلى أغلال صلبة شدّ عليها وثاقها ، إلى حدّ أنه كان عليها أن تكبت رعشة داخلية أبدية. سارت إلى جانب توم بين الحقول بكتفين مقوسيْن. وذراعين متصالبين بإحكام على صدرها. مع ذلك لم تكن تحس بالبرودة ، بالمعنى البدنى. حول المنزل كانت حقول الذرة ، التى تبدت فى تلك اللحظة فى لون ذهبى لامع ، تسيل جداول من الضوء عندما تمر فوقها الريح ، وتصدر أوراق الشجر اليابسة رنينا جافا وهى تتحرك بلا انقطاع ، مثل دبيب الفأر فوق الحشائش. لم يتكلم توم ؛ لكن وجهه كان مهموما وعابسا. عندما تناولت يده استجاب لها ، لكن بفتور. أرادت منه أن يستدير إليها ، ليقول لها: « هو الآن ذاهب لأمر من أموره ، ينبغى أن تعودى إلىّ ، وسوف نشق طريقنا من جديد. » أرادت منه أن يستردها ، أن يداوى جراحها ، أن يعيد إليها الطمأنينة. لكنه كان مضطربا وقلقا ؛ فى النهاية قالت بخجل: « لماذا تهتم إلى هذا الحد ؟ الأوْلى أن أكون أنا التعيسة ».

« ألست كذلك ؟ » ، سأل ، وكان يبدو مثل شخص أغضبه عدم الأمانة.

قالت: « نعم ، بالطبع » ؛ وحاولت أن تجد الكلمات لتقول أنه فقط لو استطاع أن يستردها برفق إلى كنفه الآمن ، كما ظل يفعل لأعوام خلت ، لانصلح الحال بينهما.

لكن ذلك الأمان لم يعد له وجود فى داخله.

طوال ذلك اليوم ، لم يتحادثا إلا نادرا ، ليس بسبب عداء بينهما ، بل

بسبب يأس عميق حزين، عجزا عن مساعدة بعضهما.

في تلك الليلة لم يعد كينيث من المدينة. في اليوم التالي ذهب توم بمفرده إلى المزرعة التالية ، تاركا إياها بنظرة اعتذار رقيقة ، وكأنه يقول: « دعيني وشأني ، لم أعد أتحمل هذا ».

اتصل كينيث تليفونيا في منتصف الصباح من المدينة ، كان صوته فظا ؛ كان أيضا دفاعيا قليلا. ذلك الصوت الواهن القادم من مثل تلك المسافة عبر الأسلاك استدعى صورة واضحة لكينيث نفسه حتى أنها ابتسمت بحنان.

سألت بحذر: « حسنا ؟ »

« سأعود في وقت ما. لا أعرف متى ».

« هذا يعني أن الأمر محسوم ؟ »

« أعتقد ذلك ». سكتة. ثم انزلق الصوت إلى دعابة جافة. « إنها فتاة لطيفة جدا إلى حد أن الأمور تأخذ وقتا أطول ، ألا تعرفين ». ضحكت چوليا. أضاف بسرعة: « لكنها جميلة حقا ، أنت تعرفين يا چوليا. إنها لطيفة بشكل مريع ».

« عظيم ، افعل ما تراه واجبا » ، قالت بحذر.

سأل: « كيف حال توم ؟ »

أجابت: « فجأة صرت لا أعرف شيئا عن توم ». ساد صمت طويل حتى أنها ضغطت على زر التليفون.

قال كينيث: « مازلت معك. كنت أحاول التفكير في الأشياء المناسبة للحديث ».

« هل وصل الأمر إلى حد أن نضطر إلى التفكير في الأشياء المناسبة ».

« شيء من هذا القبيل ، أليس كذلك ؟ »

« مع السلامة » ، قالت بسرعة ، وهي تضع السماعة. « دعني أعرف

متى ستأتى وسوف أرتب حاجياتك »

كما جرت العادة ، كل صباح ، تنقلت فى جولة تفتيشية من حُجرة إلى حجرة فى المنزل الكبير العارى ، حيث تظل النوافذ مفتوحة طوال النهار ، فتظهر كتلا من البلّور الأزرق حول الجدران ، أو مشاهد من المرج ، كأن المبنى ، القرميد والحديد ذاتهما ، اتحد مع السماء ، ومع المنظر الريفى ، لتكوين نوع معين من البيوت. عندما أنهت تفتيشها الرسمى ، ووجدت كل شىء منظفا ومصقولا ومرتبا ، ذهبت إلى المطبخ، وهناك أعطت التعليمات بشأن الوجبات ، وناقشت حالة الكرار مع طباخها. ثم عادت إلى الفراندة ؛ فى هذه الساعة كانت عادة تقرأ ، أو تخيط ، حتى موعد الغداء.

اقتحمت عقلها ، بقوة مدمرة ، فكرة أنها لو غابت عن المنزل ، لن يكاد توم يلاحظ ذلك ، من الناحية المادية: الخدم سيوفرون أسباب الراحة بدونها. كبحت رغبة فى أن تذهب إلى المطبخ ، وتطبخ ، أو أن ترتب دولابا ، لتجد عملا يشغلها: لم يكن ذلك ما سعت إليه ، مجرد ملطِّف مؤقت لشعورها بأنها عديمة الجدوى. أخذت قبعتها القش الكبيرة الخفيفة من على المسمار فى الطرقة الخالية المبلطة بالحجر وخرجت إلى الحديقة. لأنها لم تكن تهتم بالبستنة ، لاحظت أن الأرض حول المنزل منسقة بمجموعات من الشجيرات ، بحيث كانت هناك مساحات صغيرة من الزهور فى أى وقت من السنة. حافظ الجناينى على هذه المساحات ناضرة وخضراء. وفوق الحشائش الزمردية الزاهية انتشرت زهور فصل الجفاف ، زهور البوانسيه ، ألوانا منثورة فضفاضة من القرمزى الزاهى ، والأحمر القرنفلى الوردى ، والأصفر الفاتح. وعلى السيقان الرقيقة ، البنية اللامعة اهتزت الأوراق الخضراء الرقيقة. وعند هبوب ريح عاصفة مفاجئة تتراقص وتهتز الأزهار والأوراق السريعة الحركة ؛ كانت تبدو لها وكأنها الجوهر الحقيقى لذلك الوقت من السنة ، جوهر البرودة الجافة ، وأشعة الشمس الرقيقة المشرقة ، والسماء العالية الزرقاء الضاربة إلى الخضرة.

عبرت بهدوء الممر بين المساحات الخضراء والأزهار إلى طريق المزرعة ، واستدارت لتلتفت إلى المنزل. بدا من الخارج مثل مخزن حبوب كبير متشامخ في مبنى ، بمساحاته من السقف القصديرى البراق ، وجدرانه ذات اللون القرنفلى الصارخ ، ونوافذه ذات الأشكال المضلّعة اللامعة. ورغم شجيرات نمت متفرقة حوله ، ورغم أجمة كثيفة من الأشجار حجبته عن الأنظار ، بدا عاريا ، فجا ، بسيطا. « ذلك بيتى » ، قالت جوليا لنفسها ، وهى تختبر الكلمة. نبذتها. فى ذلك البيت عاشت عشر سنوات – بل أكثر. ابتعدت عنه ، وسارت بلا مبالاة على التراب القرنفلى المنخول للممرات كأنها غريب. دائما كانت هناك أوقات نبذتها فيها أفريقيا ، وأحست فيها أنها أشبه بشبح هائم. كان هذا وقتا من تلك الأوقات. عبر المشاهد المعروفة والمحبوبة للمرج رأت بيونس ايرس ، روما ، كيب تاون – عديدا من المدن ، الضخمة والصغيرة ، تندمج وتمتزج فيما كانت البلدة ترتفع وتهبط من حولها . ربما كان من غير الملائم للبشر أن يعيشوا فى أماكن كثيرة كهذه ؟ لكن الأمر لم يكن كذلك. كانت تعانى من جفاف غير مألوف فى الحواس ، ألم مجهول الموضع ، مجهول المركز ، كان من شأنه ، لو أنها كانت شابة ، أن يتمحور حول شخص أو مكان ، لكنه ظل فى تلك اللحظة حبيسا داخلها. "من أنا ؟" كانت تقول لنفسها ، وهى تسير خلال المرج ، وسط الرقعة المتحركة من الظل الذى سقط من القبعة الضخمة المتدلية. على كلا الجانبين كانت الحشائش الطويلة تتحرك وتهمس بصفير ؛ وكان اليمام يرفرف برقة من فوق الأشجار ؛ وكانت السماء قوسا زهريا أزرق فوقها – كان ، كما يقال ، صباحا جميلا.

سارت مثل شبح بمحاذاة جسور حقول الذرة ، تلاحظ جماعات العمال من السكان الأصليين ؛ عند البئر تريّثت لترى النساء مع أطفالهن العراة ؛ وعند حظائر الماشية انحنت لتتحسس الأنوف الرطبة للعجول المتدافعة البلهاء التى تناطحت وتدافعت عند ساقيها. هناك مكثت بعض الوقت ، باحثة عن السلوى لدى هذه المخلوقات الصغيرة. أدركت أخيرا أن موعد الغداء قد حلّ

تقريبا. كان عليها أن تعود إلى البيت لتشرف على إعداد مائدة الغداء لتوم ، إذا ما قرر العودة. تركت العجول وهى تفكر: ربما كان ينبغى أن أنجب أطفالا ؟ وكانت تعلم تماما أنها لن تفعل.

كان طريق العودة إلى المنزل يتلوى بمحاذاة الهضبة المتعرجة بين مستنقعين يمتدان على الجانبين. سارت على مهل ، وهى تحاول أن تستعيد تلك الدهشة الرقيقة التى أحست بها عندما وصلت للمرة الأولى إلى المزرعة واكتشفت كم حرمتها حياة المدن من إدراك شكل السماء والأرض. عاليا ، فى القبة الهائلة المتألقة للسماء الزرقاء ، كانت تيارات الريح مصحوبة بدوامات السحاب ، وتيارات الهواء الخلفية بأكوام ثقيلة منحوتة من الجليد الراكد. حولها كان الهيكل الصخرى يلوح تحت الغلاف الرقيق للتربة الحية. وتكاثفت الأشجار مع هبوط أو ارتفاع الأرض ، ومع جريان الأنهار الجوفية ؛ وكانت الحشائش – الشعر الأشقر الطويل للحشائش – تناضل دائما لتداوى وتخفى أية جروح يحدثها حافر الحيوان أو طيش الإنسان. إلتفت حولها السماء والأرض والهواء المدوّم فى تبادل مع الماء والحرارة ، وكانت الهمهمة العميقة الوفيرة للمادة الحية تتردد كطنين فى دمها. أصغت نصف سلبية ونصف متمردة ، وسألت: « بماذا أساهم فى كل هذا ؟ ».

عصر ذلك اليوم تجولت مرة أخرى ، عدّة ساعات ؛ وطوال اليوم التالى ؛ وكانت تعود إلى المنزل فى مواعيد دقيقة من أجل الوجبات وتحية توم عبر المسافة التى تفرض نفسها بين أشخاص يحاولون تدعيم أنفسهم بالمعرفة الذهنية لبلدة ما ، وأولئك الذين يعملون فيها. ذات مرة قال توم ، باهتمام مرهق ، ناظرا إلى وجهها المرهق بنفس القدر: « چوليا ، لم أدرك أنك ستهتمين إلى هذا الحد. أعتقد أنه كان وهما. ظننت دائما أننى آتى فى المقدمة ».

« أنت كذلك فعلا » ، قالت بسرعة ، « صدقنى ، أنت كذلك فعلاً ».

ذهبت إليه ، حتى يكون بوسعه أن يلف ذراعيه حولها. فعل ، لكن لم

يكن هناك أى دفء فى ذلك لأىٍّ منهما. « سنكون على ما يرام مرة أخرى » ، وعدها. لكن بدا وكأنه يصغى إلى صدى صوته هو برسالة للطمأنة.

عاد كينيث على غير توقع فى الليلة الرابعة ، كان بمفرده ؛ وبدا عاقد العزم وحازما. أثناء العشاء لم يتكلم أحد كثيرا. بعد العشاء ، فى الحجرة الخالية ، الكالحة ، ذات المدفأة المشتعلة ، انتظر الثلاثة أن يتكلم أحدهم.

أخيرا قالت چوليا: « حسنا ، يا كينيث ؟ »

« سنتزوج فى الشهر القادم »

« أين ؟ »

« فى الكنيسة » قال. ابتسم ابتسامة مغتصبة. « هى تريد زفافا لائقا. أنا لا أمانع ، إن كانت تحب هذا ». كان سلوك كينيث على الإجمال حادا ، وعمليا ، وقاسيا. فى وقت واحد نظر إلى چوليا وتوم بقلق: كان يكره موقفه.

سألت چوليا: « كم عمرها ؟ »

« طفلة. ثلاثة وعشرون »

صدم هذا چوليا. « كينيث ، لا يمكنك أن تفعل ذلك ».

« لم لا ؟ »

لم يكن بوسع چوليا فى الحقيقة أن ترى لم لا.

سأل توم بروح عملية: « هل تملك مالا ؟ » ، مما جعل الآخرين ينظران إليه بدهشة. قال بسرعة: « رغم كل شىء ، يجب أن نعرف أشياء عنها ، قبل أن تأتى ».

« بالطبع ، لا تملك » ، قال كينيث بفتور. « لم تكن لتأتى إلى المستعمرات ضمن مخطط يتلقى إعانة لاستقدام نساء صالحات للزواج ، أليس كذلك ؟ »

كشَّر توم. قال: « أنتما الاثنان عديما الرحمة ».

نظر كل من كينيث وچوليا إلى الآخر ؛ كان ذلك نوعا من الاستهجان ». أنا لم أذكر المال فى المقام الأول » ، أوضح. « بل فعلت ، على أى حال ،

ما الخطأ في هذا ؟ لو أنني كنت واحدة من فائض النساء في انجلترا ، لتعيّن أن أهاجر دون شك بحثا عن زوج. هذا هو الشيء الوحيد المعقول الذي ينبغي عمله».

سألت چوليا: « على أيّ شيء تعيش الآن ؟ »

« لها عمل بأحد المكاتب. هراء من هذا القبيل ». طرح كينيث هذا الموضوع جانبا. « على أي حال ، لماذا الحديث عن المال ؟ بالتأكيد لدينا ما يكفي ».

سألت چوليا: « كم نملك ؟ » ، كانت دائما مغيّبة إلى حد ما فيما يتعلق بالمال.

« الكثير جدا » قال توم ، ضاحكا. « في السنوات الثلاث الأخيرة عملنا الآلاف ».

« كم ألفا ؟ »

« يصعب القول ، الكثير جدا يعود إلى المزارع. خمسون ألفا ربما. سنعمل أكثر كثيرا هذا العام ».

ابتسمت چوليا. لم تستطع أن تحوّل كلمتي "خمسون ألفا" إلى واقع ملموس في ذهنها. فكرت كيف أنها كانت تكسب رزقها على مدى سنوات ، في المكاتب ، وتضع ميزانية لكل شيء تنفقه. « أعتقد أنه يمكن أن نوصف بأننا أغنياء ؟ » سألت أخيرا بدهشة ، محاولة أن تربط هذه الحقيقة بالحياة التي عاشتها ، وبالبلدة من حولهم ، وبمستقبلهم.

« أعتقد يمكن » ، وافق توم ، وهو يطلق ضحكة هازلة بصوت كالشخير. كان يروق له أن تتيح له چوليا أن يفكر في أنها عاجزة. « يرجع الفضل الأكبر إلى كينيث » ، أضاف. « كل العمل الذي قام به أثناء الحرب يعطي ثماره الآن ».

نظرت چوليا إليه ثم بتهكم إلى كينيث ، الذي كان يتقلقل غير مستريح في مقعده. واصل توم بتهكم ودود ، منتقما لنفسه من سخريات كينيث من

الحرب: « هذه المزرعة تتحول إلى موقع سياحى ؛ وصلنى خطاب من الحكومة تسألنى فيه ما إذا كان بمقدورهم أن يأتوا بمجموعة من الزوار المشاهير من الوطن لمشاهدتها ، فى الأسبوع القادم. سيكون عليك أن تقومى بدور المضيفة. إنهم قادمون ليروا المجهود الحربى الذى قام به كينيث ». ضحك. « كان ذلك أيضا مربحا للغاية ».

أغلق كينيث فمه تماما ؛ وتمالك أعصابه. « نحن نتناقش الآن حول زوجتى المقبلة » ، قال بفتور.

« هذا ما نفعل » ، قالت چوليا.

« إذن دعونا ننتهى من هذا الموضوع. سأمنح الفتاة شهر عسل ممتازا وغاليا فى أفخم الفنادق وأروعها فى شبه القارة » ، واصل كينيث فى تجهم « ستحب هذا ».

« وكيف لا تحبه ؟ » سألت چوليا. « كنت سأحبه أيضا ، فى سنها »

« لم أقل أنها لن تحبه »

سألت چوليا من جديد: « وحينئذ ؟ ». كانت تريد أن تسمع ما هو نوع المشاريع التى لدى كينيث بخصوص مزرعة أخرى. نظر إليها نظرة تنم عن عدم الفهم. « وحينئذ ، ماذا ؟ »

« أين ستذهب ؟ »

« أذهب ؟ »

أدركت أنه لم يكن ينوى الرحيل عن المزرعة. كان هذا صدمة ألجمتها. أخيرا استجمعت نفسها وقالت ببطء: « كينيث ، بالتأكيد أنت لا تنوى أن تعيش هنا ؟ ».

« لم لا ؟ » سأل بسرعة ، من موقف دفاعى إلى حد بعيد.

توتر الجو حتى أن چوليا أدركت وهى تنقل بصرها من رجل إلى الآخر ، أن هذه هى الأزمة الحقيقية فى الأمر كله ، كان شيئا لم تتوقعه ، لكن كان كلاهما ينتظر منها ، بوعى أو بدون وعى ، أن تتطرق إليه.

قالت ببطء: « يا إلهى » ، بغضب متصاعد: « يا إلهى ». نظرت إلى توم ، الذى حوّل بصره فى الحال. أدركت أن توم كان يتلهف بقلق أن تتيح لكينيث أن يبقى.

فهمت أخيرا أنه لو خطر ببال أحدهما أنه لا يمكن لامرأة أخرى أن تعيش هنا سيكون هذا إدراكا لم يتهيأ أى منهما لمواجهته. نظرت إلى الرجلين وكرهتهما بسبب الطريقة التى كانا يدخلان بها النساء فى كنفهما ، دون تغيير فكرة أو عادة للتوافق معهن.

نهضت ، وسارت ببطء بعيدا عنهما ، ووقفت مديرة ظهرها إليهما ، تحدق من خلال النافذة فى الليل الشتوى الكثيف النجوم. قالت: « كينيث ، أنتَ تتزوج من هذه الفتاة لأنك تنوى تكوين أسرة. الحقيقة أنك لا تهتم بها (بنكلة) ».

رد كينيث محتجا: « أصبحت مغرما بها جدا ».

« فى الواقع ، هى لا تهمك (بنكلة). »

لم يرد. « أنت ستأتى بها هنا إلىّ. ستحس بغريزتها إن لم يكن بعقلها ، أنه تم استغلالها. وأنت تأتى بها هنا إلىّ. » بدا لها أنها أوضحت إحساسها بالإهانة بما فيه الكفاية. استدارت لتواجههما.

قال كينيث بجفاء: « فكرة الإتيان بها (إليك) لا تبدو لى صدمة كما هى بالنسبة لك فيما يظهر ».

« ألا يمكنك أن تفهم » ، قالت يائسة. « لا يمكنها أن تتنافس... »

قال كينيث بحدة: « أنت تبالغين فى إطراء نفسك ».

« أوه ، أنا لا أعنى ذلك. أنا أعنى أننا معا منذ وقت طويل. ليس هناك شىء لا يعرفه أحدنا عن الآخر. ألابد أن أقول ذلك ... »

« لا » ، قال كينيث بهدوء. « من الأفضل جدا ألا تقولى ».

خلال كل هذا كان توم ، ذلك الرجل الضخم ، الوسيم ، الصافى المزاج ، يسترخى على مقعده ، ينقل نظره من زوجته إلى أخيه غير الشقيق

بإحساس شخص تم نقله فجأة إلى بلد غريب.

قال بعناد: « لا أفهم لماذا لا تكيفين نفسك ، يا چوليا . رغم كل شيء ، اضطررنا كلانا ، كينيث وأنا ، إلى تكييف أنفسنا مع ... »

« تماما » ، قال كينيث بسرعة ، « تماما ».

هاجمت كينيث غاضبة. « لماذا تقطع الحديث دائما ، لماذا لا ينبغى أن نتحدث عن ذلك ؟ هذا هو الواقع بالنسبة لنا جميعا ، أليس كذلك ؟ »

قال كينيث بنظرة متجهمة: « لا معنى للحديث عن ذلك ».

« لا » ، قالت ببرود. « لا معنى ». استدارت مبتعدة عنهما ، وهى تقاوم الدموع. « الواقع أن أيا منكما لا يهتم (بنكلة) حقيقة. هذه هى الحقيقة ». فى تلك اللحظة بدا لها هذا حقيقيا.

« ماذا تعنين (بالاهتمام حقيقة) ؟ » سأل كينيث.

استدارت چوليا ببطء مبتعدة عن النافذة ، وهى تزيح الستائر الصيفية الرقيقة عن النجوم. « أعنى ، نحن لا نهتم. نحن ببساطة لا نهتم. »

« أنا لا أعرف عم تتحدثين » ، قال توم ، وهو يبدو مرتبكا وغاضبا.

« ألست سعيدة معى ؟ أهذا ما تقولين ، يا چوليا ؟ »

عند هذا بدأ كينيث وچوليا يضحكان ضحكا مؤلما لا يقاوم

قالت أخيرا بفتور: « سعيدة معك بالطبع »

سأل توم: « عظيم إذن ؟ »

« لا أدرى لماذا كنت سعيدة من قبل ، ولماذا لست سعيدة الآن ».

قال كينيث بحدة: « فلنقل أنك تغارين ».

« لكن لا أعتقد أننى كذلك »

« أنت كذلك بلا شك »

« عظيم جدا إذن ، أنا كذلك. ليست تلك هى المسألة. ماذا سنفعل للفتاة ؟ » سألت فجأة ، وقد وجد شعورها تعبيرا عن نفسه.

قال كينيث: « سأكون زوجا طيبا لها ». نظر ثلاثتهم كل إلى الآخر ،

بحواجب مرفوعة ، وبشفاه مزمومة ساخرة.

« عظيم جدا إذن » ، غيّر كينيث لهجته. « لكن سيكون لها كثير من الأطفال الرائعين ، وستكونين لها أنت ، يا چوليا ، صديقة ، لطيفة وذكية. وسيكون لديها مال وفير وملابس أنيقة ، وكل هراء من هذا القبيل ، إذا أرادت ».

ساد صمت طويل بدا معه ألا شيء يمكن أن يكسره.

قالت چوليا ببطء وألم: « أعتقد أنه شيء مرعب ألا نكون قادرين على شرح ما نحس به أو ماذا نكون ».

قال كينيث: « أتمنى أن تكُفّي عن تلك المحاولة ، فأنا أجد ذلك غير سار. وعديم الجدوى تماما ».

قال توم: « بالنسبة لي ، سأكون بالغ الامتنان إذا حاولت أن تشرحي ما تحسين به ، يا چوليا. ليست لديّ أيّ فكرة ».

وقفت چوليا وظهرها إلى اللهب وبدأت تتلمّس طريقها: « انظر إلى حالنا. أعنى ، ماذا حققنا ؟ ماذا نفعل هنا ، فى المقام الأول ؟ »

سأل توم بحنان: « نفعل أين ؟ »

« هنا ، فى أفريقيا ، فى هذه المقاطعة ، على هذه الأرض »

« أووو ه » ، تأوّه توم مداعبا.

« يا إلهى ، يا چوليا » ، اعترض كينيث نافد الصبر.

« أحس كأننا لا ينبغى أن نكون هنا ».

« أين ينبغى أن نكون ، إذن ؟ »

« لنا نفس الحق الذى لأى شخص آخر ».

« أعتقد ذلك » ، طرحت چوليا الفكرة جانبا. لم يكن ذلك قصدها ، رغم كل شيء ، فيما بدا. قالت ببطء: « أعتقد أن هناك أشخاصا قليلين جدا نسبيا فى العالم يتمتعون بما نتمتع به من الأمان والثراء ».

« لا يحتاج الأمر إلى أكثر من موسمين رديئين أو تغيير فى الوضع

الدولى » ، قال كينيث: « يمكن أن نصبح فقراء بنفس السهولة التى أصبحنا بها أغنياء. إذا أردت أن تصفى ذلك بالسهولة لقد عملنا بكدّ واجتهاد ، توم وأنا ».

« هذا ما يفعله أشخاص آخرون كثيرون. فى نفس الوقت لدينا كل ما نريد من مال. لماذا لا نتحدث عن المال أبدا ، ولا نفكر فيه أبدا ؟ ما نحن إلا بالمال ».

« تكلمى عن نفسك ، يا چوليا » ، قال توم. « كينيث وأنا نقضى كل أيامنا لا نفكر ولا نتكلم فى شىء آخر سواه. بأى وسيلة أخرى تعتقدين أننا أصبحنا أغنياء ؟ »

« كيف يُصنع المال. وليس ماذا يحقق كل هذا المال ».

لم يجب الرجلان ، نظر كل منهما إلى الآخر بإذعان. أشعل كينيث سيجارة ، وتوم البايب.

« انتابنى إحساس ما بخصوص المال فى الأيام القليلة الماضية. ربما ليس بخصوص المال بقدر ما هو بخصوص ... » توقفت. « لا أستطيع أن أعبر عما أحس. لا فائدة. ماذا تحقق حياتنا ؟ هذا ما أريد أن أعرف ».

سأل كينيث أخيرا بفضول: « لماذا تتوقعين منا أن نخبرك ؟ »

كانت هذه نغمة جديدة. نظرت چوليا إليه ، حائرة. قالت أخيرا: « لا أدرى ». ثم ، بجفاء شديد: « أعتقد أننى يجب أن أكون مستعدة لتحمل تبعات الزواج منكما كليكما ». ضحك الرجلان بقلق وإن بارتياح فأسوأ ما فى الأمر بدا على وشك الانتهاء. « لو أننى رحلت عن هذا المكان غدا » ، قالت بحزن ، « فإنك ببساطة لن تفتقدنى ».

« آه ، أنت تحبين كينيث » ، همهم توم فجأة. كانت الهمهمة مفاجئة. وقد صدرت مباشرة بعد أن عكّرت الملاحظة الطائشة الجو ، وبنجاح – حتى أن چوليا لم تتحملها. استمرت بهدوء ورفق لتمحو الألم الواضح فى صوت توم: « لا ، لا أحبه. أرجو ألا تتحدث عن الحب ».

« ذلك ما يدور حوله كل هذا » ، قال كينيث. « الحب ».

نظرت إليه چوليا باحتقار. قالت: « أى نوع من الناس نحن ؟ فلنستخدم الكلمات العارية للحقائق العارية ، مرة واحدة فقط ».

همس كينيث: « هل يجب أن تفعلى ذلك ؟ »

« نعم ، يجب أن أفعل. الحقيقة أننى كنت نوعا من المحظية من الدرجة الأولى لكما أنتما الأثنين... » توقفت فى الحال. حتى بداية خطبتها العنيفة بدت سخيفة فى أذنيها هى.

قال كينيث متهكما: « آمل أن يكون ذلك التصريح قد أعاد إليك صوابك ». « لا ، لم يفعل. لم أتوقع أن يفعل ». لكن چوليا فى تلك اللحظة كانت تقاتل بصلابة ضد تلك المنطقة المتنازع عليها فى الإحساس والتى عاشت فيها زمنا طويلا ، تلك المنطقة تحت سطح البحر حيث يجرى الخلط بين شىء وآخر ، وفقا للمد والجزر.

« كان ينبغى أن يكون لى أطفال » ، قالت أخيرا بهدوء. « ذلك مكمن خطئنا ، يا توم. الأطفال ما كنا نحتاج إليه ».

« آه » ، قال كينيث من مقعده ، بصدق مفاجىء وعميق: « الآن تتكلمين كلاما معقولا ».

« عظيم » ، قال توم ، « لا شىء يعوقنا ».

« أصبحت كبيرة على الإنجاب ».

« نساء أخريات فى الأربعين مازلن ينجبن ».

« أنا فى غاية الإرهاق. يبدو لى أن المرء ، كى ينجب ، يحتاج إلى... » ، توقفت.

سأل توم: « ماذا يحتاج المرء ؟ »

التقت عينا چوليا بعينى كينيث ؛ تبادلا تفاهما ، عميقا ، ساخرا ، صبورا.

« حمدا الله أنك لم تتزوجى منى » ، قال فجأة. « كنت محقة تماما. توم

هو الرجل المناسب لك. في الزواج من الضروري لأحد الطرفين أن يكون قويا بما يكفي لخلق الوهم ».

سأل توم بفظاظة: « أي وهم ؟ »

قال كينيث ببساطة: « الضرورة »

سأل توم: « هل هذا هو الدور الذي ستقوم به هذه الفتاة معك ؟ »

« بالضبط. هي تحبني ، كان الله في عونها. حقا هي تحبني ، أتعرف... » ، نظر اليهما كينيث كأنه يدعوهما إلى مشاركته في الدهشة من هذه الحقيقة. « وهي تريد أطفالا. وهي تعرف لماذا تريدهم. ستجعلني أعرف ذلك أيضا ، بارك الله فيها. معظم الوقت » ، لم يستطع أن يمنع نفسه من إضافة ذلك.

في تلك اللحظة بدا الاستمرار مستحيلا. ظلوا صامتين ، ووجه كل منهم يعكس تعاسة الإرهاق والحيرة. وقفت جوليا أمام رف المستوقد ، تستشعر دفء اللهب يسري في جسدها ، لكنه لا يصل إلى القشعريرة بداخلها.

أفاق كينيث أولا. نهض وقال: « الفراش ، الفراش لنا جميعا. هذا لن يفيد. لا يجب أن نتكلم. يجب أن نتقدم ، ونهتم بالخطوة التالية ». قال: « ليلتكم سعيدة » ، وذهب إلى الباب. هناك استدار ، ورمق جوليا بنظرة حادة وعميقة بعينيه السوداوين ، اليقظتين ، الثاقبتين ، وقال: « يجب أن تكوني لطيفة مع تلك الفتاة ، يا جوليا ».

« أنت تعلم جيدا أنني أستطيع أن أكون (لطيفة) معها ، لكنني لن أكون (لطيفة) من أجلها. أنت تعرّضها لذلك عن عمد. أنت لن تنتقل حتى ميليْن بعيدا إلى المزرعة المجاورة. أنت حتى لن تكلف خاطرك مشقة ذلك لتجعلها سعيدة. تذكّر ذلك ؟ »

أحمرّ وجه كينيث ، وقال بسرعة: « عظيم ، أنا لم أقل أنني لن أذهب إلى المزرعة الأخرى » ، وخرج. كانت جوليا تدرك أن الأمر سيحتاج إلى كثير

من التعاسة لأربعتهم قبل أن يوافق على الرحيل. كان يفكر فى هذا المنزل على أنه بيته ، ولم يكن يتحمل فراق توم ، حتى فى تلك اللحظة.

« تعالِى هنا » ، قال توم برقة ، بعد أن غادر كينيث الحجرة. ذهبت إليه ، واندست إلى جانبه فى مقعده. سأل: « هل تجدينى غبيا ؟ »

« لستَ غبيا ».

« ماذا إذن ؟ »

أدنته إليها. « ضع ذراعيك حولى ».

أمسك بها ؛ لكنها لم تشعر بتشجيع: كان الذراعان حولها خفيفين كالريح ، وغير ثابتتين كالريح.

فى منتصف الليل نهضت من فراشها ، واندست فى ثوبها وسارت عبر الممرات الملتوية إلى حجرة نوم كينيث ، التى كانت فى الطرف الآخر من المنزل.

كان ضوء القمر الساطع يملأ الحُجرة. كان كينيث يجلس مستندا إلى وسائده ؛ كان مستيقظا ، أمكنها أن ترى الضوء يومض فى عينيه.

جلست عند طرف فراشه.

« نعم ، يا جوليا ؟ من غير المناسب أن تأتى إلىّ ، كما تعرفين ».

لم ترد. أربكها الإعتام المشوش للقمر ، الذى كان يتدلى خارج النافذة مباشرة. تناولت عود ثقاب لتشعل الشمعة ، وأخذت تراقب وهجا أصفر دافئا يملأ الحجرة ، حتى أن القمر تقهقر وأصبح قطعة معدنية صغيرة لامعة ترتفع عاليا بين النجوم.

رأت على التسريحة صورة فوتوغرافية جديدة فى برواز.

قالت بتهكم: « إذا حصل المرء على زوجة فهو يحصل بالطبع على صورة فوتوغرافية ليضعها على تسريحته ». ذهبت إليها والتقطتها وعادت بها إلى الفراش. راقبها كينيث ، بيقظة.

شيئا فشيئا ، انفرج وجه جوليا عن ابتسامة حانية.

« ما الأمر ؟ » سأل كينيث بسرعة.

لم تكن فى الثالثة والعشرين ، استطاعت چوليا أن تدرك ذلك. كانت فوق الثلاثين بكثير. كان وجها مليحا إلى حد مقبول ، انجليزيا قحا ، بعارضين منبسطين صقيلين وملامح دقيقة. والشعر الجميل المتموج ينسدل بنعومة فى انتظام على الجبين.

كان هناك قلق فى تلك العينين البالغتى الجدية ؛ وكان الفم يبتسم فى عناية بحلاوة مهيأة للتصوير ، وكان الخدان نحيلين. عندما أدارت الصورة ناحية الضوء استطاعت چوليا أن ترى كم كانت الرقبة مجعّدة ومتغضنة. لا ، لم تكن فتاة بحال من الأحوال. ألقت نظرة عجلى على كينيث ؛ وامتلأت شيئا فشيئا بحنان عذب لاعقلانى تجاهه ، ببهجة لذيذة لا مسئولة.

« لماذا ؟ » قالت ، « أنت تحب ، رغم كل شىء ، يا كينيث »

« من قال أننى لم أحب ؟ » ، ابتسم لها ابتسامة عريضة ، وهو يستلقى منتبها فى فراشه وينفث دخان سيجارته.

ابتسمت له بدورها ابتسامة عريضة فى حنان ، طافية ما تزال فوق موجة البهجة ؛ ثم استدارت ، وأحست بالموجة تتراجع فيما كانت تنظر إلى الصورة ، وفى عقل بالها حيث هذه المرأة المتعبة الأخرى القادمة إلى المزرعة الغنية الضخمة ، مثل الفتاة الفقيرة فى حكاية الجان.

سأل كينيث بحذر: « ما الذى يلهيك هكذا ؟ »

أوضحت بجفاء: « كنت أفكر فيك كملاذ »

« أنا مستعد تماما لذلك. »

« أبدا لن تكون ملاذا لأحد ».

« ليس لك. لكنك تنسين أنها أصغر ». ضحك: « ستكون أقل انتقادا ».

ابتسمت ، دون أن تجيب ، ناظرة إلى الوجه فى الصورة. كان وجها متزمتا ، جادا ، مخلصا ، وكانت العينان جادتين للغاية ، حادتين للغاية.

تنهدت چوليا: « أنا متعبة جدا » ، قالت لكينيث ، مستديرة إليه.

« أعرف أنك كذلك ، وكذلك أنا. لهذا أتزوج ».

كونّت چوليا انطباعا ذهنيا واضحا عن هذه المرأة الانجليزية ، التى كانت على وشك المجيء إلى المزرعة. للحظة سمحت لنفسها بأن تتصورها فى مواقف متباينة ، وهى تصل بكياسة عصبية ، وهى تخفى لهفتها على بيت خاص بها ، وهى تأمل ألا تجد فى چوليا عدواً. لن تجد فى انتظارها صراعا أو خصومة أو انفجارات غضب - ولا أى موقف من المواقف التى ربما استعدت لمواجهتها. ستجد ثلاثة أشخاص يعرف كلٌّ منهم الآخر تماما حتى أنهم فى أغلب الأحوال يكادون لا يجدون ضرورة للكلام. ستجد اللامبالاة تجاه كل شىء كانته حقا ، ستجد عطفا معداً ومدروسا بعناية. ستكون مثل قادم متأخر إلى حفل ، يدخل حجرة عندما يكون كل من فيها قد وطّدوا صلاتهم بساعات من الدفء والألفة. ستكون عاجزة أمام رغبة كينيث أن تكون شيئا لا يمكنها أن تكونه: امرأة شابة ، بالحيوية الروحية الكفيلة بمداواته.

بينما كانت تنظر إلى الفتاة المليحة داخل الإطار الذى تمسك به بين كفيها ، الفتاة التى أمكن لچوليا أن ترى تحت سطح ملاحتها المرأة القلقة ، التى تحاصرها المخاوف ، واتتها معرفة الكلمة التى كانت تبحث عنها: بدا وكأن تلك الشفتين المبتسمتين بعناية اتخذتا شكل تلك الكلمة. « هل تعرف ما نحن ؟ » سألت كينيث.

أجاب كينيث بمرح: « ليست لدى أدنى فكرة ».

استوحت چوليا كلمة الإثم من تلك الفتاة المتزمتة المتشردة. كانت هذه الكلمة جابهتها مرتين فى حياتها ؛ فى هذه المرة تلقتها بامتنان. على أية حال لم تواتها كلمة أخرى..

قالت لكينيث: « أعرف ما هو الإثم ».

أجابها بنفاد صبر: « كم هو لطيف لك » ، ثم أضاف « أعتقد أنك ، مثل أغلب النساء اللاتى عشن حياتهن ؛ أيّا كان ما يعنيه ذلك ، تبدئين الآن فى إحياء ضمير مضخّم. إذا كان الأمر كذلك ، سنجد كلانا أنك مملة جداً ».

« هل هذا ما أفعل ؟ » سألت ، وهى تفكر فى الأمر. « لا أعتقد ذلك ».

نظر إليها برزانة. « إذهبى إلى فراشك ، يا عزيزتى. كُفِّى عن هذا الهراء. هل أنت مستعدة لعمل شىء بهذا الخصوص ؟ لست مستعدة ، أليس كذلك ؟ إذن كُفِّى عن جعلنا جميعا تعساء بسبب أمور مستحيلة. نحن نحيا حياة سعيدة إلى حد معقول ، ونأخذها كما هى. ليس من الممتع جدا أن يكون المرء حثالة شىء ما ، لكن حتى هذا له أشكال من التعويض ».

أصغت جوليا ، مبتسمة ، إلى صوتها هى تتكلم. « أنت عبرت عن ذلك تعبيرا رائعا » ، قالت ذلك وهى تخرج من الحجرة.

دوريــــس ليسنــــج

ولدت الكاتبة البريطانية دوريس ليسنج فى ايران سنة ١٩١٩ ، وفى الخامسة من عمرها انتقلت مع والديها إلى جنوب أفريقيا حتى بلغت الثلاثين.

صدرت أول أعمالها: *العشب يغني* عام ١٩٥٠. وكما فى هذه المجموعة تتحدث عن الزنوج وعلاقتهم بالمستوطنين البيض كما عاشتها بنفسها فى مجتمع قائم على التمييز العنصرى والتعصب وسيادة الأقلية البيضاء.

كانت غزيرة الانتاج ، وقالوا أنها أعظم أديبات عصرها ونالت العديد من الجوائز العالمية مثلا جائزة سومرست موم عن مجموعاتها القصصية خمسة ، وجائزة النمسا الرسمية للأدب الأوربى عام ١٩٨١ ، وجائزة شكسبير من ألمانيا الغربية عام ٨٢.

من رواياتها: **أطفال العاصفة ، شيكاستا ، الارهابى الطيب ، زواج موفق ، مذكرات باق على قيد الحياة** ... الخ.

من مجموعاتها القصصية القصيرة : **مادونا السوداء ، شتاء فى يوليو ، عادة الحب ، رجل وأمرأتان ، إلى الحجرة ١٩ ، الشمس بين أقدامهم**... الخ.

نالت شهرة عريضة ولاقت نجاحا كبيرا مع باكورة أعمالها فى انجلترا وأوروبا وأمريكا وتوالت مؤلفاتها ، ورغم ذلك فلم يترجم لها إلى العربية إلا الأستاذ سعد زهران مسرحية **التيه أو كل فى بيدائه** عام ٦٦ والأستاذ خليل كلفت قصتيْن قصيرتيْن نشرتهما مجلة **القاهرة**.

هل أتحدث عن كتاباتها ، أسلوبها ، شاعريتها ، تنوع وعمق موضوعاتها ، قدرتها الفذة على تشريح شخوصها ، ليس هذا مجالى ، ولا أستطيع أن أخوض فيه ، لكننى حرصت – قدر طاقتى – على أن يكون صوتها هو المسموع ، وأسلوبها هو السائد ، وأتعشم أن يكون هذا العمل أحد المداخل لعالم دوريس ليسنج الثرى الزاخر.